طارق إمام

رواية

# ضريح أبي

دار العين للنشر

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

# ضريح أبي

# ضريح أبي

(رواية)

طارق إمام

الطبعة الأولى / ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail . com

الهيئة الاستشارية للدار
أ. د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ. د. فتح الله الشيخ
أ. د. فيصل يونس
أ. د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف:

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٥٢٩ /٢٠١٣
I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 231 – 4

# ضريح أبي

روايــة

طارق إمام

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

**بطاقة فهرسة**

**فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشيءون الفنية**

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٣

ص؛ سم.

تدمك: ٤ ٢٣١ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١-

أ- العنوان

**رقم الإيداع / ١١٥٢٩ / ٢٠١٣**

إلى أحمد عبداللطيف

.. فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليِّه.

**(أبو يزيد البسطامي)**

# عتبة

الطريق بين المقابر العمومية –حيث يرقد جسد أمي– والضريح المتوحد الذي يحيا فيه جثمان أبي، طويلٌ جداً.

لا يزال ترابياً، بهواء أصفر كثيف يسبح فيه غبار ثقيل.. فقد فشلت آلات الرصف عبر سنوات متتالية في تمهيده، بسبب لعنة غامضة كانت تصيب المعادن الهادرة بالشلل قبل دخولها مباشرة فتوقفها عن العمل.

أقطع هذا الطريق منذ وعيتُ على الدنيا، منتقلاً من مقبرة المرأة التي لم أرها لضريح الرجل الذي لم أعرفه أبداً.. وبينما كنت أطلب المغفرة لأمي وأقرأ لها الفاتحة، فإنني كنت أتضرع لأبي، متمسحاً في عتبته، ليمنحني البركة من منامات ميتته المقدسة حيث يقطن.

كان هذا الطريق المتلوي كثعبان صامت شريطاً من الرعب، فقد زَوَّد المدينة بحيوانات غريبة خلقها هواءُ الموت المحكم: مسوخ سوداء لكلاب ذئبية نحيفة بلا آذان أو ذيول، خطومها شديدة الطول، وكلها من الذكور. لم يعرف الناس أبداً كيف يمكن لهذه المسوخ أحادية الجنس أن تتناسل، ورغم اعتراضهم الأخلاقي على مضاجعاتها الشاذة، فإن أحداً لم يجرؤ

على البوح باعتراضه خوفاً من اللعنة. هذه المسوخ بالذات كانت تسمى بالكلاب المقدسة، فقد ترسخ أنها كانت تمد خطومها في جلابيب المارين في الطريق المقدس لتتأكد أنهم ليسوا جنباً.. وأن من تلاحقهم بالركض الشرس على هذا الطريق كل فترة هم النجسون من غير المتوضئين.

تكاد تلك المسوخ تكون أقدم سكان مدينتنا. بدأت في الظهور، مثلما يقول المعمرون نقلاً عن معمرين أسبق، عقب موت أبي مباشرة. اختلفت التفسيرات حول طريقة بزوغها بين ليلة وضحاها، وحول الحكمة من وجودها. تتجول بأناة بامتداد الطريق لاصقة خطومها بالأرض، تتمشى بوداعة وسكينة لتتغذى –فقط– على التراب الناعم.. وفي المساء تتفرق على أنحاء المدينة، قطعاناً متفرقة من رعب داكن، لتهاجم البيوت التي ترك أصحابها نوافذها وشرفاتها مفتوحة. تحلق فجأة عابرةً الهواء لتقفز عبر الفرجات بخفة طيور، تمد خطومها في أجساد الضحايا الساهين فتُحولهم في لحظة إلى حفنات من التراب.. وتأتي النعوش في الصباح لتحمل التراب من فوق الملاءات: مسحوق ناعم مائل للصفرة، تمضي به خفيفة لتقذف به إلى المقابر بيسر.

لهذا السبب نعيش في مدينة تغلق شبابيكها بمجرد أن تغرب الشمس. منذ مئات السنين لم ير شخصٌ عاقل في هذه المدينة المساء وجهاً لوجه من نافذته. وبالرغم من الحذر الذي توارثته أجيال متعاقبة، ظل السهو يمد مسوخ مدينتنا بأشياء تفعلها، فلم تكن هذه الحيوانات المظلمة تعدم ضحايا مثاليين بين الحين والآخر: هناك دائماً رجل ترك شباكه مفتوحاً

أو امرأة نسيت نافذتها مشرعة.. هناك العجائز والحالمون، وهناك أيضاً الراغبون في الموت.

يقول العارفون بأبي، (ممن يجذبهم التحدث عن انتقامه) إن أغلب الضحايا من نسل الأشخاص الذين أساءوا له في حياته المديدة. يقولون إنه عندما جاء، غريباً وحيداً، في طريقه ليحج البيت، كان بصحبته واحد منهم لحمايته في نومة الخلاء، تبعه من جهة غروب الشمس، وظل معه هنا، حيث لم يكمل الرحلة أبداً، وحيث باغته الفناء بعد سيل كرامات لا تُصدق.

ضاعف الحيوان من استغراب الناس ومن خوفهم. مات الرجل وظل المسخ واقفاً على باب الضريح الذي شُيِّد فوقه، قبل أن يظهر آخر، في اليوم التالي، كأنه وُلِد من العدم. بدأ الناس يرونهما يتهارشان أمام الضريح، ولأن الناس في بلدتنا يعتقدون أصلاً أن الكلاب كائنات نجسة، يفسد لمسها الوضوء وتجلب الشياطين للبيوت التي تعيش فيها، فقد كان احتمالهم لشذوذها أيضاً فوق طاقة احتمالهم. ذات يوم تجرأ شخص، سقط اسمه بسهولة من ذاكرة الناس، حاول أن يفض اشتباك المسخين، في الصباح التالي كان المسخان قد صارا ثلاثة.

فور أن أقاموا فوقه القبة، بدأ يحلم. ظل يحلم في كل مرة بمدينة، يؤسس فيها بيتاً في منامه، ويكون له فيها ضريح عندما يستيقظ. مات في كل المدن التي حلم بها، الميتات كلها التي يمكن لآدمي أن يذوقها، ودفن. له في كل مدينة ضريح، وتلاوات تطلب الرحمة لروحه. صار تراباً منثوراً

في أنحاء الدنيا، ذكرى في كل الأرجاء، رغم أنه لا يزال حياً، هنا، في مدينتنا بالذات، التي منحها الله نعمة لا يمكن أن يشاركها فيها مكان آخر، أنها مدينته. هنا لم يمت أبداً.. ظل عجوزاً بحياة مضاعفة، تؤكدها ميتاته بالذات، التي صار يعرفها كلها.

كيف يكون جسداً هنا وتراباً في كل الأماكن؟ سألت كثيراً و لم يجبني أحد. حتى رجاله الكثيرون، بالبيارق السوداء، كانوا يكتفون باستغفار الله عندما أسأل.

عند عتبات أبي، كنت أرى دموع المعذبين تغسل الأرض، بينما ينصت الرجل الذي في الداخل لآلام الفانين الباحثين عن معجزة.

تتشبث الأيدي بي فور أن أصل، وتصرخ نساء مكحولات محلولات الشعر في وجهي، يتمسحن في ملابسي ويتشبثن بساقي. يظنونني واسطة مثالية بينهم وبينه. أرى أطفالاً مجذومين ورجالاً تتساقط أعضاؤهم بلا سبب، وأرامل ومطلقات وتائهين، وفتيات جميلات مثقلات بالخطايا. كلهم يوجهون عجزهم نحوي بمجرد أن يلمحوني، ويبدأون في تضييق الخناق حولي بحثاً عن خلاص نهائي للألم. كان الحارس ورجال الطريقة الأشداء يخلصونني منهم بعنف وحشي، ويفرقونهم بالعصي مضاعفين من عذابات أجسادهم الهشة.

أتقدم كالمسحور، مستنشقاً رائحة البخور الثقيل، الخانق.. بين صفوف الآيات المكتوبة بالخط الكوفي المتقن، ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. تطل عليَّ الآيات اَلتي كَتبها خط يدي. تَتلصص عَلي بينما أنهب بكَفي المفتوحتين الخطابات وأقذف بها في الحقيبة. من بين هذه الخطابات رسائل مرتعشة لحاكم البلاد نفسه ورجال الحكومة المتجهمين الذين يأتون من العاصمة البعيدة متخفين خلف أقنعةٍ ثقيلة ليذرفوا كبرياءهم بالقرب من رماده.

لقد أُعدّت مدينتنا الصغيرة على عجل، في قلب رمال غير منتهية، ويبدو أن كَل شيء حدث بفضله.. فقبل أن ينتصب ضريحه، لُم يُعرف عمران هنا.

تَشَّكل أول جيل في مدينتنا من قطيع نساء عاقرات، جئن مع أزواج مغلوبين على أمرهم، من البلدات البعيدة، داومن على زيارته طمعاً في الإنجاب، (هو الذي مات دون أن ينجب) ونذرن النذور بأن الطفل المستحيل لو تحقق، سيبقين على مقربة منه، في الأرض الجدباء ذات الحشائش القليلة القاسية كالنصال، وفي أبدية السرابات الممتدة. تحققت المعجزة تلو الأخرى، انتفخت البطون بأبناء، وتمددت بيوت من طابق واحد لتفي بالنذور، حتى تشكلت في نهاية المطاف مدينة صغيرة على عجل، لا تطل على نهر أو بحر، ولا يصلها خط سكك حديدية بأقرب المدن، والتي كانت تبعد مئات الكيلو مترات.

مدينتنا مليئة بالعجائز المعمرين. هنا يعيش الناس أعماراً أطول من حيواتهم الافتراضية ويموتون دون مجد، وإذا اتفقنا أن الذاكرة هي أسوأ

مايمكن لشخص أن يتشبث به في أواخر أيامه.. فإن الجميع هنا تقريباً لم يكونوا يعرفون عن العالم سوى ذكراهم تجاهه، وهو ما يجعلني أؤكد أننا نعيش حفنة من الشوارع الضيقة دون حاضر. وربما نكاية في هذه الذاكرة الحادة بالذات، فإن التاريخ المتاح لمدينتنا في الدفاتر الرسمية وأوراق الدولة المختومة لا يمت للواقع بصلة.

"جبل الكحل"، إنه اسم يبقى جذاباً إذا ما قورن بفقر مدينتنا. تحمله الآن لافتة معلقة عند محطة القطار المرتجلة الصغيرة، التي يقلع منها قطار وحيد وبطيء، أصفر اللون كأنه نوع من الزواحف الرملية، وفوق ذلك، منذور للعنات المتكررة.

يقولون إنه من منح المدينة اسمها، بمعجزة مبكرة، قطعت بها امرأة عجوز الصحراوات المتعاقبة لتحط على الحدود الأولى للمدينة الناشئة، مُفرغةً في الليل أجولة كثيرة، لا يعلم أحد كيف صحبتها أو حملتها، ولينتصب جبلٌ بلون العتمة، كأنها أفرغت الليل نفسه على الأرض، أتى عليه الشروق ليكشف زرقته الداكنة، ورائحته النفاذة.

تبدو المسافة بين مقابر العاديين وقصر الآخرة الذي ينام فيه أبي كأنها تصل بين طرفي العالم، فعندما تشرق الشمس فوق الضريح يكون الظلام قد خيم على الطرف الآخر، أما اللحظة التي يستيقظ فيها الفجر عند الشواهد المتراصة للموتى العموميين فإنها تتزامن مع هبوط قرص الغروب في قلب السماء التي تظلل جثمانه، وبين الميتتين كانت المدينة تحيا زمناً ثالثاً لا ينتمي لأي منهما.

# مدن الآخــرة

.. فعند ذلك أشرفتُ على نفسي أنه هو الرب
والرب هو العبد

# 1

أرسل أبي في طلبي، فعرفت أنني سأموت اليوم.

لم يشأ أن يزورني في منام، مثلما يفعل مع الغرباء، لكنه أوفد لي أحدَ حراسه.

طرق الرجل الأسود بابي مع أول خيوط الفجر، وسلمني القصاصة المقتضبة التي كتبها ولي الله الصالح بخطه الميت.. لأقطع، للمرة الأخيرة، الطريق الطويل إليه (الطريق الضيق نفسه الذي طالما تنفست فيه هواء موت الآخرين، والذي سأتحرك باتجاهه الآن، لأستنشق، للمرة الأولى، هواء موتي بالذات).

بدا الحارس ميتاً، كأنه امتداد غامض للهيكل العظمي الذي أرسله. وعندما امتدت لي يده بالوريقة المصفرة، تمكنت من رؤية أقدم كف في العالم، والأكثر تيبساً، قبل أن يدس في كفي رسالة شبح سحيق، كان أباً لشخص واحد في العالم، هو أنا.

وهو يعبر عتبة بابي، بدا أكثر عدوانية واعتداداً بنفسه. كانت المرة الأولى منذ سنوات طويلة التي يغادر فيها مملكة الظلال لكي يعبر طريقاً طويلاً وعراً ينتهي به عند باب خشبي تختبئ خلفه الحياة التي طالما تجنبها، كثيفة ومنزوية مثل طفلة في حلم.

كنت أقابله داخل ضريح أبي، (منذ أيام أشعر بها بعيدة الآن). يعد لي وجبة طعام أفشل في التعرف على مكوناتّها، بالطعم المخاتل، في الضوء الخافت الذي يُطير آيات قرآن سحيقة قادمة من حنجرة مجهولة، كأنه يذكرني بذنوبي. يعاملني كخادم، مطرق الرأس، لكي يخفي أنفه الشائخ الذي سقط من وجهه ذات يوم.

بعد أن أفرغ من طعامي، يأتي بصندوق النذور الضخم (لا أعرف كيف يتسنى له حمله) ويضعه أمامي، ثم يتركني وحيداً. أفرغه، أضع المال في جيوبي والرسائل المتضرعة في حقيبتي.

أبقى وجهه مرفوعاً، غائباً في نقوش السقف، حتى أنني اكتشفت، لأول مرة، أنه لا يملك على وجه التقريب أكثر من عينين. رفض الجلوس على مقعد، التصق بالأرض مقرفصاً وظل يرتل ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، يكررها بتلاوات مختلفة. أخيراً نظر لي واجفاً، ونهض.

ظللتُ خجِلاً (ذلك الخجل المصنوع من مادة الرعب نفسها) وأنا أرقب دخان السجائر الذي يغمر الشقة. لم أكن صائماً، رغم أن الخيط الأبيض ليوم رمضاني جديد كان يخترق الصالة، وكانت السيجارة التي حاولت إطفائها بشكلٍ سيئ فور اقتحام الطرقات الناعمة، تبعث بدخانها من المنفضة، مؤكدةً كُفري، فبقيت ناظراً للأرض في خجل، لكنه في جميع الأحوال لم يكن بمقدوره أن ينهرني.

لقد كان، مثل جميع رجال أبي، خادماً لي. ورغم أنني بلا كرامات، ولم أقدم في حياتي ما يدل على جدارتي بأن أكون ابنه، إلا أنني ظللت مرهوب الجانب، فلقوة الدم معجزاتها.

لم أتوقع زيارة كهذه، وشعرت أنني أتعرى على يد لص، وأنا أتجسس على نظراته التي تجوس في مكاني. كانت سجادة الصلاة مثبتة على الحائط منذ زمن بعيد بأربعة مسامير قوية، بعد أن اكتشفت أن مكان نقوشها الغزيرة ليس قدمي الحافيتين، وكانت الآيات التي صنعتها يدي على الحوائط محفوفة الآن برسوم نساء تنحني لتلتقط طيوراً من ماء، وبوجه متكرر لامرأة، رسمته من خيالي واعتبرته وجه أمي. ومن كل ركن في الشقة، كان يمكن لأنف خبير أو ممعن في التقوى، أن يعثر على الرائحة المميزة لعري امرأة.

فكرت أن أقول أى شيء، لأقتل الصمت بعبارة، لكن نظرة واحدة لجسده المنكفئ كأنه دخل للتو مقبرته، جعلتني أتراجع عن التحدث لإله الموت الغامض الذي يدخل لأول مرة منذ سنوات واحداً من بيوت الفانين، الملوثة والسابحة في هواء الإثم.

ذات يوم كان قاطع طريق. يقال إنه فكر مرة في التسلل للضريح ليسرق صندوق النذور، المتخم على الدوام بأموال وذهب، وفي اللحظة التي فتح فيها الصندوق، فوجئ بالرجل ذي القامة المديدة متكوماً بداخله.

"كان عارياً، يرفو حصيرته، عندما نظر إلي ورمى بخيطه على يدي فانفصلتا عن ذراعي". هكذا سيظل قاطع الطريق القديم يتذكر، وهو يتأمل كفيه اللذين عادا، بعد أن جثى وتوسل له أن يعيد إليه يديه ويدعه يعود من حيث أتى. رق له قلب ولي الله.. لكن قاطع الطريق لم يجد في نفسه رغبة لشيء إلا أن يسهر ما تقدم من عمره على حماية صندوق النذور ذاك بالذات.

عندما أهم بفتحه، كان يختفي على الفور، كأن الولي الملتصق بقاع الصندوق سيخرج ليجرده من كفيه مجدداً. حين خرجت آمناً في المرة الأولى، ظل ينظر إلي غير مصدق. ربما رهب جانبي منذ ذلك اليوم، مصدقاً أن ولي الله هو أبي، بدليل أنه لا يصيبني بأذى ولا يقطع يدي رغم أنني أفتح صندوقه وأسرق الأموال والرسائل التي يجب أن تبقى سراً بينه وبين مريديه، تماماً مثلما حاول قاطع الطريق أن يفعل ذات يوم.

بمجرد أن أتممت الثامنة عشرة، صرتُ وصياً على الصندوق ومؤتمناً عليه، أُعطي الحارس والخادمة نصيبهما، وشيخ الطريقة نصيب رجال الطريقة، وكان الباقي هو نصيبي.

– أين المخطوط؟

جعل سؤاله الجاف الآمر جلدي يتجعد. قبل أن أفكر في رد، قال وهو يدير عينيه في أكداس الكتب بالمكتبة:

– إنه يريده..

لم يكن من الممكن أن أقول له إن الحياة التي يريد أبي استردادها الآن، تحولت لشيء آخر، لحياةٍ أخرى كالموت، أو ربما لموتٍ مثل الحياة.

كنتُ الشخص المكلف بكتابة حياة أبي، أو بالأحرى حيواته وميتاته في مدن المنام، لكني بدلاً من ذلك، بتؤدة وعلى مهل، وبشعورٍ قاسٍ بالذنب ما لبث أن تحول لخطيئة يوميةٍ، جعلت من المخطوط الغامضً مكاناً لكتابة حياتي.

# 2

عرفت مبكراً جداً أن أبي لم يمت، في وقت لم أكن أستطيع فيه التمييز بين الظاهر والباطن من معاني الأشياء والكلمات. اعتبرته رجلاً نائماً فقط.

هذا ما قاله لي أيضاً "حجاج"، شيخ الطريقة، والذي كان أكبر رجل على الأرض يحب أبي.

رفض هذا الرجل أن أناديه بالشيخ حجاج كما يفعل الكبير قبل الصغير، رفض أن أُقبِّل يده، وكان يقول لي: "أنا خادمك". كان ينطقها موسعاً من فمه الضيق، فأرى البريق الغامض لكائنٍ يضيء كلماته.

بسنٍ ذهبية في مقدمة فمه، كان شيخ الطريقة قادراً دائماً على إخافتي. قطعة معدن غالية، ينزع عنها ببساطة بقايا الطعام التي التصقت بها. لا يخشى عليها، فالذهب لا يشيخ ولا يتلف، لا خوف عليه من السوس والديدان الصغيرة، لا يعكس رائحة البقايا في الأمعاء كأنه يكشفنا في أعمق نقطة.

"لو كانت جميع أسناننا من ذهب، لو أننا وُلدنا هكذا.. ما شخنا أبداً.. فالموت يبدأ حياته من انهيارات الفم". هكذا تَعوَّد أن يقول لي، وهو يخبط بإظفره على كنزه الصغير.

تمنى كثيراً أن يضيف إليها سناً جديدة. يوماً بعد الآخر كان فمه يخلو، ترحل الأسنان واحدة وراء أخرى.. فتزداد اليتيمة لمعاناً.

تمنى ولم يستطع أبداً تدبير أخت للغالية في فمه.. وعندما تنازل أخيراً وقبل بواحدة فضية إلى جوارها، بدا فمه، في انفتاحه على السنتين الكبيرتين، كأنه يُطلعني على الشمس والقمر.

ظلتا تتصارعان، وفي النهاية، أمام عيني، تدحرج القمر من بين شفتيه وضاع بين حصى الطريق.

"لو كان مات فعلاً، ما تمكن من إنجابك بعد مئات السنوات من رقاده". هكذا طمأنني شيخ الطريقة وهو يضع في يدي البيرق الأسود الثقيل وأنا دون السابعة.

من جانبه، غذى أبي وجوده بقدرات متتالية على تذكيري بنفوذه.

أبي انتقم لي كثيراً في طفولتي، رغم أن قدرته هذه أخذت تتضاءل

كلما كبرت، و لم أعرف أبداً، هل لأنه بدأ أخيراً يشيخ، أم لأن مشاكلي أصبحت أكبر من معجزاته نفسها؟

إنني، مثلاً، أتذكر الطفل الذي ركل الكرة في وجهي ذات يوم، وتجرأ على أن يقول لي "يا ابن الزانية". لقد اختفى في اليوم التالي مباشرة. انتشرت الأخبار من أفواه أهله تؤكد أنه أصيب بمرض غامض. داروا به على المداوين والأطباء في كل البلدات المجاورة، وفي النهاية ذهبوا، خجلين، للرجل الذي أساء الطفل لابنه، لكن الطفل مات أمام ضريحه.

انتشرت الحكاية، أصبح الأطفال يتجنبونني تماماً. كنت أنزل بكُرتي -كرة حمراء بلاستيكية اشترتها لي جدتي- وأظل أركلها باتجاه الحائط لترتد إلي. أظن أنني يومها ذقت اليتم لأول مرة. كانوا، على بعد أمتار مني، قد قسموا نفسهم لفريقين كالعادة. يومها مشيت بالكرة حتى مقبرة أمي، (المقبرة التي أقنعت نفسي أنها مقبرة أمي). وقفت أمامها، ورحت أدحرج الكرة باتجاه قاعدتها مرة بعد أخرى. هبطت من فوق المقبرة امرأة كالرجل، نهرتني، "لا تزعج الأموات". قلت لها متحدياً إن هذه مقبرة أمي. في لمح البصر قطعت المقرئة العمياء الخطوات التي تفصلها عني، والتقطت الكرة، وبإظفرها (إظفر لن أنساه، ربما حتى في الموت) شقَّت الكرة إلى نصفين، قذفت بهما في وجهي، ثم قالت: "هذه ليست مقبرة أحد".

شكوتها لأمي بصوت عالٍ، لكن أمي لم تفعل شيئاً. ظلت العمياء محتفظة بجلستها فوق مقّبرتها، وظللت أخشاها، ولا أصافحها عندما أزور أمي، إلى اليوم، كما اعتقدت أنني لو مُنحت الفرصة لأقتلها، فلن أتردد.

في ذلك اليوم، اكتشفت لأول مرة كم أن أمي ضعيفة بالنسبة لأبي القوي القادر على قتل الناس من أجلي. عدت للأطفال بكذبة ألهمني بها هواء المقابر. لقد ذهبت لأبي وشكوتكم له، وهو يقول لكم لو لم تلعبوا معي ستموتون جميعاً بنفس المرض الغامض الذي مات به صاحبكم. في اليوم التالي انضممت للعب، سُمح لي، لأول مرة، أن أقضي الوقت كله لاعباً، دون أن أضطر لتبادل حراسة المرمى مع الآخرين. شعرت أن خصومي يوسعون لي الطريق كي أحرز الأهداف، وأسعدني ذلك، لم يعرقلني أحد، فلم تتسخ ملابسي وأنا عائد لبيت جدتي، وهو ما أدهش المرأة العجوز التي راحت تتأمل ملابسي وكأنها تحدق في معجزة. في تلك الأيام، كنت أفهم لأول مرة من خلال الواقع كيف أن أبي حي بطريقته، وهكذا آمنت بوجوده على الفور.

يقولون، (الجميع تقريباً يقولون) إن أبي لم يمت، لكنه يمر بمنامات طويلة، يعيش خلالها في مدن أخرى، فليست أحلامه إلا حيوات حقيقية في بقاع أخرى من الأرض، (مثلما يمكن أن تكون مدينتنا بكل ما فيها حلماً لشخص ما، اعتقدت كثيراً أنه أنا). حدث ذلك لمئات السنين، وظل ولي الله الصالح يعيش قرونه المتعاقبة بين حياة وموت.

من كان بإمكانه إحصاء عدد الحيوات التي عاشها؟

"ميتاته لا تُحصى، وهو الآن يعيش". كانت هذه هي العبارة التي يختتم بها حجاج ابتهالاته. يكررها ثلاثاً وثلاثين مرة، على السبحة، ونرددها خلفه.

أبي نفسه لم يكن بإمكانه إحصاء حيواته، مثلما لم يكن بإمكانه إحصاء ميتاته التي انتهت إليها كل تلك الحيوات. كان يموت في نومه، منهياً في كل مرة واحدة من حيوات منامه التي لا تُصدق، فكلما حلم بمدينةٍ مات فيها، تقوده كل حياة متوهمة في المنام لميتة حقيقية في الواقع، لنهاية ينتهي فيها جسده كل مرة إلى التراب، ويُبعث بالاستيقاظ من نومه، كجنين يرى الدنيا لأول مرة.

مات مفترشاً حصيرته، يقولون إنهم فور رفع جثمانه من فوقها ليُلف بالكفن ويُدفن، ارتفعت الحصيرة الخالية وظلت ترتفع في الهواء ثم هبطت لتصفعهم، كلما نهضوا بالميت، تعاود الحصيرة الصفع مثل سوط ضخم، وأن صوته تردد يقول: "كفنوني بها.. فهي التي تحملني في الريح". هكذا انصاعوا لأمره، وهكذا أصبحت حصيرته تقوده في أحلامه ليعبر بها الهواءات مستقراً في المدن الغريبة.

يأتي الغرباء، من رأوه في بلاد الله، خاطبين الود، والالتحاق بالطريقة. ثم يبدأ كل واحد في سرد حكايته مع الولي. رأيت ناساً أشكالاً وألواناً، قابلوه في أراضي الحج المقدسة، رأوه في بلاد الأجانب الكافرة، وفي العاصمة الكبيرة، يعمل حداداً ونجاراً وصانع فواخير. كنت أندهش، أتحسر وأحقد على هؤلاء "الأحباب"، لأنني الوحيد الذي لم يقابله ولا مرة.

"حيواته في المنام هي حيواتكم في الواقع، موته يقظة وحياته نوم".

ويغرق شيخ الطريقة في الوجد.

"ليس لك صالح بأصحاب اللحى يا ولدي. إنهم يكرهون أباك. يكرهون أمك. يكرهونك".

العبارة الأخرى الأثيرة لشيخ الطريقة. ربما قالها لي لأول مرة عندما أخبرته ذات يوم أن الناس باللحى الطويلة والجلابيب القصيرة يستغفرون الله بصوت عالٍ عندما يمرون بجانبي، ولا يلقون علي السلام الطويل الممطوط الَّذي لا يملون من تكراره حتى على الكراسي الخالية: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

لم أعرف لماذا لم ينتقم أبي من أحد منهم. بالعكس، كانوا ينمون بسرعة، يصبحون طوالاً كالحوائط، ويفوح من ملابسهم جميعاً عطرٌ مميز لا يتغير.

كانوا يتبنون الرواية الأخرى، التي جاهدت جدتي وشيخ الطريقة لإخفائها عني، وهي أن أمي، (التي أرسلها أبوها القاسي لتخدم في الضريح بعد أن أصبحت مجذوبة تمشي عارية في الشوارع، وتغني بين جدران البيت وفي نوافذه بصوتٍ عالٍ متغنج تسمعه البلدة كلها)، حملت سفاحاً في طفل بعد فترة قصيرةٍ من ذهابها، لما سألوها عن الرجل، أشارت بلا مبالاة للستائر وقالت: منه.

هؤلاء يقولون إن من فعلها حارس الضريح الذي يقرأ في الداخل كتاباً فاحشاً بصوت عالٍ للميت. يقولون إن النساء العاقرات اللائي يدخلن خلف الستائرٍ ليطلّع الولي على عوراتهن، يفتحن أفخاذهن للحارس الكافر، ويخرجن بأرحام معبأة بمنيه.

بابتسامته السَكينية قال لي شيخ الطريقة: "انظر إلى وجهك ووجه الحارس". لم أكن أملك من وجهه شيئاً، وكان الفارق الواضح بين لونه الأبنوسي وبشرتي البيضاء المشربة بحمرة ملتهبة، دليلاً دامغاً، لكني كنت أملك ألماً آخر، فلا أملك صورة لأمي تجعلني قادراً على معرفة ما ينتمي لها من ملامحي.

ملأ شيخ الطريقة حجاج رأس طفولتي بأشياء كثيرة، حتى حكاية وجودي التي لا تُصدق أقنعني بها. في نحو السابعة، بدأت أتحرك مع رجال الطريقة. ما زلت أذكر اليوم الأول الذي ذهبت فيه معهم لـ"استرداد الضريح"، مثلما كان شيخ الطريقة يُطلق على هذه المهمة. كانت المسيرة تتلو الآيات بامتداد الطريق، بصوتٍ عالٍ هادر، كي تطهره من الشياطين. نمشي ببطء، حفاة كما تشترط الطريقة التي تؤكد عقيدتها على عدم تلويث الأرض المقدسة بالنعال في أيام مولده.

كنت بلا اسم، بلا أي أوراق من تلك التي تدل على الناس، فبالنسبة لأي ممن يُثبتون في أوراق الدولة أن مولوداً جديداً قد أتى، كانت تلزم قسيمة زواج، وبطاقة تدل على هوية الأب، وهو ما لم يكن متوفراً في حالتي. وللأسباب نفسها لم تقبلني أي مدرسة. وتكفل رجال الطريقة بتعليمي القراءة والكتابة وعلوم الدين، وبإتقان فنون الخط العربي.

بالطلاء الأسود الثقيل، كنا نطلي الضريح من الخارج والداخل بلون بيارقنا، احتفالاً بيوم مولده. رائحة الطلاء النفاذة لم تكن تُطاق، والآيات، بطلاء آخر، أبيض وأشد ثقلاً، كانت تستعيد حياتها الضائعة، أذكر أنني

عندما حضرت ذلك الطقس لأول مرة، ومع رائحة البخور الثقيلة، لم يحتمل أنفي، فسقطتُ مغشياً علي.

عندما نجحت في فتح عيني، وجدت الوجوه من حولي، تطل منها الدموع، لكن تجويفاً ملتهباً بين فخذين لدنين كان يحتضن رأسي. كانت تلك هي المرة الأولى التي أتلمس فيها الجسد الجائع لـ"نعمة"، الخادمة الفاتنة، وكانت المرة الأولى التي يلتهب فيها شيء الصغير، الذي سعيت لإطفائه عندما أعادوني لبيت جدتي، و لم أكن أعرف أنني سأضطر للانتظار سنوات، بناري التي لا تطفئها يدي، إلى أن تخمد، لأول مرة، في المكان نفسه الذي احتضن رأسي، وعلى بُعد أنفاس من سرير الرجل الميت.

# 3

حصلتُ على المخطوط المسمى **مدن الآخرة** في طقسٍ خاشع داخل الضريح، كأنه صلاة سرية، احتفالاً بتحولي من طفل لرجلٍ.

ما زلت أتذكر الجسد المرتعد لشيخ الطريقة، وهو يفتح الغطاء الثقيل لصندوق النذور، يقلب يديه في أكداس الخطابات والأموال ليصل إلى الكنز الذي يرقد في القاع، قبل أن تخرج الكف الشاحبة العائدة من الغرق، بكتيب صغير، مثلجة ومعروقة، بينما عينا الرجل مغمضتان كأنه يخشى أن يرى.

هكذا حمله شيخ الطريقة على كفيه كأنه كفن صغير، ووضعه بين يدي. تجولت بعيني في العنوان الكبير المكتوب بخط يد الولي. حتى تلك

اللحظة لم يكن أحد تجرأ على فتحه أو التقليب فيه، لكني فعلت ذلك ببساطة، حيث فوجئت بأن صفحاته خالية من أي كلمة. نظرت لشيخ الطريقة لكنه أشاح بوجهه بسرعة، ربما خاف أن أطلعه على ما أرى، وربما لم يكن يصدق أنني ما زلت أحتفظ ببصري، فقد شاع أن من يحاول النظر في صفحات ذلك المخطوط يفقد بصره على الفور. لكن شيخ الطريقة، عندما رآني أقلب صفحاته وأغلقه على خوائه دون أن يذبل نور عيني، صرخ **الله أكبر**، بصوت الأجش، لتشتعل التكبيرات من خلفه، وليتراقص المجاذيب كالقرود. لم أكن أعرف أن تلك دلالة أكيدة على صحة بنوتي له، فقد قالت النبوءة القديمة أن ذلك المخطوط محظور على عيني أي آدمي، إلا لو كان من صلبه.

في صباح ذلك اليوم كانت أولى أيام الاحتفال بمولده قد خيمت، بقطعان الفقراء والسحرة وأنصاف المخلوقات التي تُحول الطريق لسحابة أرضية معبأة بالمعجزات.

أتى شيخ الطريقة وأيقظني في سريري، ثم أمسك بيدي وخرج بي، مهمهماً بطريقته الغريبة ليُطمئن جدتي عندما أوصته علي. كانت جدتي تخشى ذلك الطريق، وتطلب مني كلما خرجت إليه ألا أتوقف عن ترديد آيات الذكر الحكيم. وعلى العكس من رجال أبي، كانت تعتبر شخصياته الثابتة، التي لم تتغير منذ مئات الأعوام، شياطين متجسدة. أنا أيضاً كنت أخاف، لكن شيخ الطريقة كان يقول لي إن هؤلاء الحراس منذورين لخدمته والدفاع عنه وعني إذا ما وقع مكروه. من يستطيع الوقوف أمام هذه الآلاف من المسوخ، والتي قسمت نفسها، بغريزتها التي تتبعه،

بحيث لا يخلو جزء من الطريق من تجمع لها؟ من له أن يواجه سحر بائع المعجزات الرهيب، الذي أسره بعد أن كان أحد أعوان الشيطان؟

كان كلامه قابلاً للتصديق في تلك الأيام من طفولتي المتأخرة، لكنني الآن، عندما أستدعي عباراته اليقينية، أكتم ضحكة سوداء، ففي العامين الأخيرين تعددت محاولات الاعتداء على الضريح وهدمه، ونجحت في هدم جوانب منه، دون أن يجرؤ أبي على فعل شيء. قبل أن يحدث ذلك، كنت قد وصلت للضفة الأخرى، واصلاً لراحة نهائية بإنكاره، رغم أن ذلك يعني إنكاري لوجودي. كنت أعيش اليأس المتهادي لحقيقة أني لا أحد ممن حاول القريبون مني تأكيده، لكني، في الوقت ذاته، لم أكن أطيق هؤلاء الملتحين، الذين بدوا لي في انتشارهم المرعب خلال الأعوام الأخيرة، قطيع مسوخ من نوع مختلف، مسوخ بيضاء، لم تكن مسوخ أبي تكف عن ملاحقتهم، رغم أنهم كانوا دائماً متوضئين.

لكن مسوخ أبي، التي لم تصبني أبداً بأذى حتى ذلك اليوم، ما لبثت أن اخترقت موكب بيارقنا السوداء، وظلت تجوس في فراغات الأجساد المتلاحمة، وبدأت في نهشي. ولولا أن شيخ الطريقة كان يجيد التعامل معها وتأتمر بأمره، لحولتني في جلبابي لحفنة تراب. هشها الرجل، وما إن تفرقت حتى وضع ذراعه حول عنقي بأبوة، ثم نظر في عيني وأجهش بالدموع، قبل أن يحتضنني بقسوة لم أعتقد أبداً أن جسده الأشبه بظل يمكن أن يتوفر عليها. كنت جنباً لأول مرة و لم أكن أعرف، وهو لم يفسر لي شيئاً مما لم أفهم، فقط قال لي، الآن صرت رجلاً، سنعود إلى البيت لتستحم ثم نعود.. فهو في انتظارك.. إنه يولد اليوم.

اندهشت جدتي وهي تفتح الباب بعد دقائق من إغلاقه، لكنه أمرني أن أسرع للاستحمام، وعندما خرجت، وجدتها تجلس مطرقة، وحدست أنه أخبرها بشيء ما أصابها بالكدر. ظلت تنظر لي كأنها تتأملني لأول مرة، ولمحتُ في عينيها اللتين طالما رأيتهما قاسيتين، دموعاً ممرورة، وكأنني ذاهب لموتي.

كان الموكب في انتظارنا، وكان قطيعٌ هائل من المسوخ يصاحبه. ما إن رأتني الحيوانات المظلمة حتى انقضت عليّ من جديد، لتلعق جسدي هذه المرة بود، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها دموعها السوداء تنحدر على وجوهها النحيلة المرعبة تاركةً على الأرض بركاً صغيرة من القار. تبعتنا المسوخ عندما تحركنا من جديد، وفي الطريق كانت تنضم مسوخ جديدة، وعندما أدخلوني أولاً، (ولأول مرة قبل شيخ الطريقة نفسه)، عابراً بقدمي اليمنى عتبة الباب، جثت الحيوانات صانعةً دائرةً ضخمة حول الضريح.

بعد أن استعاد شيخ الطريقة قدراً من تماسكه، تجرأ على الاقتراب مني، لكنه ظل حريصاً على خفض بصره، وهمس في أذني، هذا أثر أبيك الذي لم يُكتب، ولا يمكن ليد أن تكتبه إلا يدك، لأنها يده على الأرض.

قلت لشيخ الطريقة بعد أن انتهيت من تقليب الصفحات البيضاء، وقد كان الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أسأله: وكيف سأكتب كل حيوات أبي في هذا الدفتر الصغير؟ انتحى بي الرجل الذي كان ما يزال يرتجف جانباً، وأطلعني على السر، هذا الكتاب لا ينتهي، تماماً مثل حيواته، فكلما امتلأت صفحاته، ستولد صفحات بيضاء جديدة.

نظرت إليه غير مصدق، وقد بدا لي في تلك اللحظة، بعينيه الزائغتين وشفتيه اللتين يسيل منهما زبد ثقيل كالقشدة، شخصاً فقد للأبد ما تبقى من عقله. كان شيخ الطريقة يبدو مجذوباً، ويمنعه ذوي اللحى من دخول مساجد البلدة، مثلما كانوا يمنعون بقية رجال الطريقة.

لكن كيف سأكتب جميع حيواته؟ هنا أشار شيخ الطريقة بإصبع مغتصب لنعمة، خادمته، وقال لي: ستكون هذه الخادمة دليلك.. إنها تعرف سيرته نقلاً عن جداتها، وتستمع منه لجديده، وتحفظ كل شيء عن ظهر قلب، بالضبط كما نطق به.

أدرت بصري، بعيني اللتين ازدادتا حدة كأنما التقطتا نوراً غامضاً من الوريقات الخاوية، ورأيت في ركن، الوجه الشاحب والعينين القادمتين من أشد المنامات حلكة.

كنت أرى نعمة من جديد، ولأول مرة، فاجأني انتصابي داخل ضريح أبي.

# 4

كانت "نعمة" امرأة جميلة. رغم كل شيء كانت امرأة جميلة. عندما رأيتها بينما أودع طفولتي للأبد، كانت تقاوم المذاق المر لزحف شيخوختها، مثلما كانت وأنا أتلمس ظهور شاربي وانتشار الشعيرات الخشنة على جسدي تواصل حياتها رغم التجاعيد التي تسيل من وجهها كطبقة ثقيلة من الشمع المُذاب.

وحدها كانت تخترق الستائر السوداء، لتطمئن على أبي، طفلها الميت.

وحدها كانت قادرةً على تجسيد ماضيه وكأنها استعارت ذاكرته، مثلما كانت وحدها قادرةً على أن تحكي ما حدث له في يومه وأنا عاجز

عن تصديق الطريقة التي يتجسد بها لها دون غيرها، عندما تجلس أمامه، وترى ما لا يمكن لغيرها أن يراه. لا أعرف كيف يحكي لها أحلامه وهو ميت، لكن نعمة، على أي حال، كانت امرأة السحر الأسود التي لا سبيل للاستفسار منها عن شيء.

تحكي عن تجسداته المتناثرة، تصف عظام أصابعه وهي تحتضن سيجارة بعد طول غياب (كانت تشتري السجائر من أجله، هكذا تقول، لكنها كانت تقاسمه دخانها). إنه يستيقظ، كأنه يمر بميتات متقطعة، كأن الحياة لا تقع مرة واحدة، كأنها ليست تلك الرشفة المتصلة يتجرعها المرء دون سبيل لتفاديها، وكذلك الموت.

"لم أكن أنا أيضاً لأصدق. كنت آخر واحدة في الدنيا يمكن أن تصدق، وأنا أسمع أمي من خلف الستائر تتحدث له، تنهض بسرعة لتجلب له مسبحته الكبيرة، لم يكن من الممكن أن أصدق أن تنكشف كل هذه العورة علي، إلا عندما أصبحت خادمته الوحيدة"

كانت "نعمة" سليلة أبدية لنساءٍ نُذرن لخدمته، تتزوج المرأة من الرجل الذي يختاره لها، حيث لن تنجبَ سوى فتاة واحدة، وتموت الواحدة لتحلِ ابنتها محلها. منذ الجدة الأولى، لم تنجب واحدة منهن سوى بنت، دائماً ابنة واحدة منذورة لخدمته.

المرأة الأولى، "جدة الجدات وخادمة الخادمات"، هي من عاشت واقعة العثور عليه (وهي رواية من روايات كثيرة متشابكة عن الطريقة التي عثروا بها عليه)، لكن نعمة تغضب من التشكيك فيها، فهي الحكاية

الوحيدة التي تؤكد رفعتها، وتجعلها تتخبط بين الجدران المعتمة راضيةً لأنها في بيتها.

حملته جدة الجدات كرضيع، ووضعته في بيتها، ومن أجله، حولت الجدران الأربعة التي تملكها من الدنيا لمقام تحيا ذكراه وتتمدد حياته تحت سقفه، بعد أن رأت منه ما رأت، بعد أن تحول أمام عينيها من هيكل عظمي قادم من تحت الأرض إلى رجل من لحم ودم يحبو أمامها. هي (كما ستظل نعمة تؤكد لي، مبررةً رفعتها) من اختارت اللون الأسود لجدرانه، من الخارج والداخل، وللستائر التي تحجبه، وللبيارق التي يرفعها مجاذيبه ومريدوه.. وهي من تنبأت بمجيء ابن من صلب هذه العظام المباركة بعد مئات السنوات القادمة، وهي من اختارها ليوصيها بأن يظل المخطوط فارغ الأوراق حتى يجئ ذلك الابن ليكتبه.

...

**يُحكى** أنه ذات يوم بعيد، وبينما كان بعض قطاع الطرق ينبشون تراب أحد شوارع تلك البقعة المهجورة، بحثاً عن عملات ذهبية أو قطع آثار مختبئة.. عثروا على هيكل عظمي متيبس، منكفئاً في وضع جلوس وقد أمسك بين كفيه العظميتين كتاباً مفتوحاً.

اندهشوا من المشهد الغريب، وضاعف من اندهاشهم أن الشبح العظمي كان يُطوق بكفيه المتيبسين كتاباً مفتوحاً، كأنه دفن وهو يقرأ.

الكتاب، الذي التقطوه من بين يديه بدافع الفضول، كان لا يزال

سليماً، لم يتعرض لتلف رغم كل هذه السنوات تحت التراب.

فكروا أن يهيلوا التراب على الهيكل العظمي مرة أخرى، ويتركوا البقعة باتجاه أخرى، ولكن واحداً منهم، (كان قد التقط الكتاب وبدأ يتصفحه بفضول مميت)، استوقفهم.. فقد لاحظ أن صفحاته كلها بيضاء تماماً.. فارغة من أي كلمات، فيما عدا الصفحة الأولى فقط، والتي كُتبت عليها عبارة بخط يد مرتعش ومهتز: "مدن الآخرة". ما إن طالعوا العِنوان، حتى بدأ يتشكل تحته سطر راحت كلماته تلتم تدريجياً، بخط أصغر، ليقرأوا: "من يعثر علي ستصيبه اللعنة إن لم يُخرجني، ومن يسمح لنفسه بتصفح ذلك المخطوط ستضيع عيناه سوى ابني".

الوصية لم تنفذ، غادر الرجال سريعاً، متشبثين أكثر بالبنادق الطويلة النائمة على أكتافهم، تاركين زائر الأعماق يتنفس تراب الليل.. ومرتعشين مخافة اللعنة وضياع البصر.

أيقظت قسوة التراب دم المرأة النائم، فنهضت، وفتحت شباكها، لترى الهيكل مقرفصاً أمام وجهها، كأنه يناديها. رأت الكتاب بين الكفين المتيبستين، بينما أيقظ القمر بيوتاً متلاصقةً كالشواهد في عينيها.

بينما تعيد النظر إلى العظام المتشبثة بأوراقها حدست أن ثمة معجزة تناديها. كانت قد تعودت على البطون المفتوحة للشوارع المرتفعة والبعيدة عن أنظار الدنيا، المحيطة ببيتها، حيث يعمل رجال خفيون في الليل، واحد منهم زوجها الجديد، ليحصلوا على ما تجود به أحشاء الشوارع التي تبدو فقيرة من كنوز غير متوقعة، حلي، وتماثيل وقطع من

ذهب خالص. بشكل ما، كان عليها أن تحرسهم، من شباكها الواطئ، وأن تحذرهم لو رأت خطراً قادماً من بعيد.

بعد أمتار قليلة بدأ الرجال يتخبطون في العمى، ثم ما لبثوا أن ارتدوا عائدين بظهورهم حيث الحفرة الكبيرة، لتبتلعهم الأرض أمام عينيها، قبل أن يلتم التراب على نفسه من جديد. كانت هي قد أخرجته، ورغم أن زوجها دُفن أمامها، بسبب ذلك الهيكل العظمي بالذات، إلا أنها لم تجد نفسها تشعر بألم أو فقد.

يوماً بعد الآخر، بدأ الدم يتجول في الهيكل العظمي واللحم يملأ فراغات العظام، إلى أن تجسد ذات يوم جسد الرجل العجوز، وقال لها: ماذا تطلبين؟ لم تكن المرأة ترغب سوى في شيء واحد، يستحيل أن يتحقق، أن ترزق بطفل. كانت عاقراً منذ سال دمها بين فخذيها، هجرها أزواج متتابعون كان آخرهم قاطع الطريق الذي تزوجها في بلدة بعيدة وأتى بها هنا قبل أن يناديه التراب ويصير البيت ملكاً لها، والآن، يضاف لجدب رحمها انقطاع الطمث عنها، لكن الرجل قال لها، لك ما طلبت، ستكون لك طفلة. قالها وتمدد على الأريكة، فاقداً أنفاسه.

دفنته المرأة في فناء البيت، بكتابه الأبيض، وبعد شهور تسعة أنجبت، لكنها قبل ذلك وفت بنذرها جاعلة من البيت مقاماً للعجوز الميت، وما هي إلا أيام، حتى انتشر الخبر، فبدأت أسراب العاقرات تأتي، وتستوطن وفاء بنذورها للبقاء، وهكذا خرجت هذه المدينة للوجود.

...

تعيد نعمة سرد الحكاية ولا تمل. تحكيها بصوت عالٍ، غير عابئة بالرجل الذي يحلم إلى جوارنا، كأنها تتحداه أن ينكر ما تقول. إنه ضيف هنا، وسيظل ضيفاً، حتى لو كان تحول لسيد يغير مقدرات الناس، بينما هي تكمل قدرها المرسوم كخادمة.

لكن نعمة، على العكس من جميع سالفاتها، كانت أكثر تعالياً وأقل وقاراً. يسمع الناس ضحكاتها المجلجلة على بعد مئات الأمتار. في البداية، بعد موت أمها مباشرة، تملصت من مهنتها المنتظرة، بل ألمحت إلى رغبتها في استرداد "البيت". وتطير رجال الطريقة من الفتاة التي قررت أن تحيد عن المكتوب، فكروا في قتلها، في استشارته بالإتيان بواحدة جديدة ممن يتمنين تقبيل التراب تحت قدميه، لكن إشارته جاءت لكبارهم في المنام، أن اتركوها، ستكون في الغد تحت قدمي. ولا أحد يعرف، هل زارها في حلم له قوة الواقع، أم تجسد لها في ليالي وحدتها الأولى بعد موت أمها بغموض الحلم، وهي تداري فتنتها بملابس الحداد، فطيَّر عقلها المتكبر.

حدث ما وعد به، وقبلت نعمة بين يوم وليلة، لكن برَهان وحيد، ألا تتزوج، ألا يصير لها نسل، أن توقف تيار الخادمات المجبولات على الجثو تحت جثمانه الذي يتنفس في الآخرة. نعمة، التي أيقنت أن استعادة حياتها صارت مستحيلة، قررت، حتى الآن على الأقل، أن تُجنب واحدة جديدة ألم المصير المحتوم، فلم تتزوج، لكن رجال الطريقة، الذين أدركوا قدرة الرجل الدائمة في التصرف نيابةً عنهم، كانوا مُطمئنين أنه في الوقت المناسب، وحين يستحكم القضاء، سيقودها لمصيرها.

نعمة أيضاً كانت المرأة التي طعنت قناعات طفولتي لأول مرة، عندما انتحت بي جانباً ذات يوم، وقالت: "أمك لم تمت".

# 5

كرر الحارس سؤاله الأشبه بأمر، أين المخطوط؟

استجمعت شجاعتي وقلت لقاطع الطريق، بلهجة اجتهدتُ كي تكون آمرة وباترة: أنا سأجلبه معي.

رغماً عني حدقت في عينيه، لكي أستعيد خيط حياتي المفقودة.

هز رأسه في يأس، كأنه كان يعرف سلفاً أن هذا سيكون ردي، وشعرت بالضياع للحظات، وأنا أفكر بغصة تكررت كثيراً خلال الشهور الأخيرة، أنني أفسدت وصية أبي عندما، دون أن أدري أو أقصد، كفرت به لأؤمن بنفسي.

لكن رأسه تيبست في لحظة وجحظت عيناه من الرعب وهما تتطلعان في نقطة خلف رأسي، كأنه يرى الموت.

استدرتُ حيث ينظر، ورأيت الوجه الأسود الذي يشب محاولاً أن يحطم الزجاج بخطمه وأظافر قائميه الأماميين. لقد تحول حيوان طفولتي إلى هيكل عظمي أشد رعباً بكثير من أيام تجسده.

حمدت الله لأن النافذة مغلقة، وإلا لقفز دون استئذان وحول الزائر في مكانه إلى تراب. قلت للحارس: لا تخف، لكنه ظل يرتجف، فنهضت وأسدلت الستائر في وجه الحيوان الذي غمر الشقة برائحة الفَناء.

لسبب ما سرتني تلك الارتعادة، ربما أشعرتني أنني أستعيد قدراً من قوتي أمامه، وعدت أمتن لمسخي الذي تركته في الفناء منذ شهور، غير مهتم حتى بأن أطل عليه.

يوم مولدي، جلبته جدتي، التي تولت تربيتي، لينشأ بصحبتي.

قالت لي عندما كبرت قليلاً، لا تخف إنه أخوك، ولن يحولنا إلى تراب. كانت العادة، التي اختفت الآن، أن تربي النساء كلاباً مع الأبناء الذكور، لحمايتهم من "العين". لكن جدتي لم تختر لحمايتي كلباً عادياً. لا أعرف كيف أتت به بعد ولادتي مباشرة.

كان يتحرك داخل البيت دون أن يصيبنا بأذى، وبسببه، لم يعرف بيت جدتي أبداً وجوداً للتراب. كنت الوحيد في البلدة الذي يمتطي واحداً من المسوخ، مثيراً حسد الجميع. لكن رحلة نضوجه كانت أسرع بكثير مني، فرأيت في طفولتي عضوه الأسود الكبير وهو ينتصب ويقذف بسائل لزج

حليبي اللون، والآن، بينما أكمل العشرين، صار هو عجوزاً، وفي حجم حصان.

في هذه اللحظة فكرت فجأة، بأنني لا يجب أن أقوم برحلتي الأخيرة من دونه، وأنه إن كان سيموت في لحظة موتي مثلما وُلد في لحظة ولادتي، (كما قالت جدتي) فإنه يجب أن يموت معي في نفس المكان.

استعدتُ وجود الحارس من جديد. كان ما يزال يحاول هزيمة ارتجافته، وتذكرت السؤال الذي عشت عمري كله أهمس به.

متى سيموت أبي لآخر مرة؟ طرحته لأول مرة في طفولتي، فنهرني شيخ الطريقة.. لكن جدتي قالت لي بشكل غامض إنه يوم يموت سيرسل في طلبي، لم تقل لي أبداً السبب.

فقط، في أيام احتضارها، همست في أذني بعبارة مقتضبة: يوم يموت.. ستموت أنت.

# 6

لكن.. لماذا يجب أن أموت في ذلك اليوم بالذات؟

لم تجبني جدتي أبداً، فبعد عبارتها الغامضة صارت عيناها حجرين أزرقين.

كانت هناك أسباب كثيرة لكي لا أصدق جدتي، لكن أسبابي لتصديقها كانت أكبر. لاحظتُ من طفولتي أن الناس تخشاها كخشيتها لأبي، بل ربما أكثر، فإن كانت مهابة أبي قادمة من بركاته ونعمه على الناس، فالخوف من جدتي كان سببه جنونها.

لم أعثر على ذلك الجنون رغم أنني الشخص الذي يعيش معها، فإذا

استثنيت عصبيتها الزائدة، التي تُميز أغلب كبار السن، وذاكرتها التي اختلطت فيها الوقائع والتواريخ، وقسوتها مع الصبية الذين يلعبون تحت شباك غرفة نومها، فإنها كانت مجرد عجوز بنقوش زرقاء باهتة على كفيها وذقنها.

لم تكن تغادر البيت إلا في اليوم الأخير من العام. كانت تستيقظ مبكراً جداً، لتصحبني لمقبرة أمي -التي اخترتها أنا حيث لم يعرف كلانا المقبرة الحقيقة التي ذهبت إليها- لنقرأ الفاتحة ونطلب لها الرحمة. كانت تحمل جوالاً كبيراً مليئاً بالأطعمة توزعه على اليتامى، وفي جوال آخر كانت تكدس كل الكرات التي احتفظت بها من الأطفال، وتنثرها لتتدحرج على تراب المقابر.

جدتي أيضاً كانت تملك حكايتها الخاصة عن مشهد موت أبي، وهي للحق (أستطيع أن أقول ذلك الآن) أفضل رواية تُبرر أحلامه غير المنتهية بعد الموت، لأنها تربطها بحياته التي لم تشهد حلماً واحداً. مبكراً، أثارتني فكرة أن يعوض شخصٌ أحلامه التي حُرِم منها بعد أن يصل للتراب، وبفضل جدتي تعودت أن أتعامل مع اليوم الذي لا أحلم فيه على أنه لم يقع.

ما زلت أتذكر وصفها للصباح غير العادي الذي استيقظت فيه الدجاجات (أرواح الشيطان كما تعودت أن تدعوها) وظلت تطلق صيحات عالية بينما كان الجميع غائبين في مناماتهم. بالمقابل، تؤكد جدتي (التي لم تر الواقعة) أن الكلاب صمتت فجأة وتوقف نباحها طيلة

الليل. كان مشهداً يحتله صراخ دجاجات وصمت كلاب هو الموت نفسه بالنسبة لجدتي. كانت جدتي، التي لا تخشى أي شيء في الدنيا، تكره الدجاج وتخاف منه، وكانت المرأة الوحيدة في البلدة التي لم ترب دجاجة واحدة في حوش المنزل العامر بالبط والإوز. كانت تقول إن لحمه "زفر" ولا يتخلص أبداً من رائحته المنفرة بفعل أي نار. ربما لذلك السبب اختارت جدتي صيحات الدجاجات الرفيعة كموسيقى كئيبة مصاحبة للمشهد، وجاء صمت الكلاب، التي كانت جدتي أيضاً وعلى العكس من جميع النساء، تحترمها وتقدرها ولا تراها نجسة كأغلب الناس، ليتوج لحظة الوداع الفخمة.

– عندما استيقظ الناس كانت الدجاجات الممسوسة آخذةً في العويل وحلت جلبة رهيبة فوق الأسطح.. وبالمقابل كانت الكلاب تجري صامتة. لم ينتبه الناس، ولكنهم فكروا جميعاً –كل على حدة– أن الليلة الماضية مرت عليهم بلا أحلام.

ناموا جميعاً ساعات طويلة واستيقظوا دون أن يروا شيئاً في مناماتهم.. وعندما مروا عليه حيث يجلس اكتشفوا أن شيئاً غير عادي حلَّ بالبلدة.. وربطوا بين تطير الدجاجات وهرولة الكلاب وأحلام الليلة الفائتة التي خاصمتهم، وفي هذه اللحظات فقط واتتهم الشجاعة لإزاحة الباب الخشبي العتيق والعبور في الظلمة، ليجدوا الجثمان النائم على سريره، بالعينين الذاهلتين، المتأملتين قليلاً من خيوط الشمس التي عبرت شيش نافذته وتقاطعت على وجهه الأزرق.

"كان يبدو كأنه يحلم لأول مرة في حياته"..تقول جدتي وكأنها رأته، وبصوت طازج كأن الميتة وقعت أمس وليس قبل ثلاثمائة سنة. لكنها عندما ترى عيني المستغربتين، تكمل، مبتلعة ربما حرجها أو إخفاقها في الكذب على طفل صغير:

هكذا وصف بعض شهود اللحظة التي لن تُنسى مشاعرهم تجاه الصورة الأخيرة التي التقطتها أعينهم لأبيك الذي غاب عن الدنيا وحيداً، تماماً مثلما عاشها.

النساء القليلات اللائي سمح لهن أزواجهن بالدخول، أكدن بعد ذلك أن الدموع تجمدت في أعينهن.. وأن الرجل الذي تجاوز المائة كان يبدو مثل طفل يواجه الحياة لأول مرة بحيرة غير مبررة، وقالت امرأة معمرة بعد ذلك بينما تسترجع مشاعرها: "شعرت أنه سيصرخ بين لحظة وأخرى كأي وليد باغته الضوء بعد تسعة أشهر من الظلمة".

الأطفال وحدهم عرفوا مبكراً، لأنهم حلموا جميعاً بحياته الحقيقية المديدة في ليلتهم السابقة.. منذ ولادته وحتى اللحظة التي مد فيها يده عند الفجر وفتح نافذته، ليغمض عينيه على الضوء الشاحب الذي بدأ يضيء عتمة المساء. جميعهم رفضوا الاستيقاظ قبل أن يكملوا المنام، لأن الحلم كان أقوى من أن تقطعه اليقظة.. وعندما انتهى المنام، خافوا أن يحكوا ما رأوا.. ليس فقط لأن أحداً من أهاليهم لم يكن ليصدق، ولكن لأنهم شعروا، بالغريزة فقط، أن هذا الحلم علامة لا يجب أن تُحكى.

عانى أبوك في حياته من غياب الأحلام عنه، حتى أنه خشي أن يتزوج

كي لا يورِّث أبناءه نقطة ضعفه. جرَّب في فترة أن يؤلف أحلاماً ويحكيها للناس طالباً تفسيرها.. لكنها كانت باهتة يفوح منها الكذب، وفوق ذلك، كان الناس يفسرونها بمعان مخيفة تبعث على التشاؤم. هكذا قرر ألا يعود إلى ذلك.. خاصةً أنه لم يكن على استعداد لأن يرتعب من طالعه بسبب منامات وهمية. من يومها كف الرجل، وعندما كان يجلس مع أصدقائه مستمعاً لأحلامهم الغريبة كان يتفنن في تفسيرها كي يجد لنفسه دوراً.. وليمضي الوقت متخفياً خلف أحلام الآخرين، قبل أن يطلب منه أحدهم سرد أحلامه.

في هذه الفترة تحديداً بدأت حياة أبيك تأخذ شكلاً جديداً لم يكن ليتخيله.. فقد راحت تفسيراته المُرتجلة لأحلام الآخرين تتحول إلى وقائع حقيقية ما تلبث أن تقع لأصحابها، بالضبط كما وصفها. كان ما يحدث نسخاً طبق الأصل من تنبؤاته.. ومع تكرار الوقائع صار الرعب هو الشعور الوحيد الذي سيطر على الرجل، وقد أدرك فجأةً أن الله حرمه من أحلامه الخاصة لكي يمنحه –بالمقابل– قدرةً أخرى على أن يقرأ أحلام الآخرين.

هكذا اكتسب، دون أن يقصد أو يريد، المهنة التي منحت حياته الخاوية معناها الوحيد.. وتيقن الناس أنه لا يحكي أحلامه لأحد لأنه يعرف تفسيراتها جيداً. تنبأ بأشياء كثيرة طيلة سنوات حياته: زيجات غير متوقعة وميتات لا تُصدق، سفر وترحال وعودة غائبين بعد طول بُعد.. ووصلت به الحنكة حد أنه أصبح يستطيع أن يقرأ أحلام الناس قبل أن ينطقوا بها.. حتى جاءت الليلة التي أدرك فيها أن الصباح سيشهد وداع أنفاسه.

ما لم يعرفه أحد أن أباك في ليلة موته بالذات شاهد آلاف الأحلام المتداخلة. أحلام حياته كلها التي ظلت مخبأة في ركن معتم هاجمته دفعة واحدة، ما إن ينتهي أحدها حتى يبدأ الآخر. راح يسبح بينها كغريق لا يريد النجاة.. وكان في نومه يعرف أنه لن يحكيها لأحد، ولن يتاح له الوقت للتفكير فيها.. لأنه أدرك بحدس غامض أنه لن يستيقظ بعد الآن، خاصة أن حلمه الأخير –الذي سبق اقتحام الأهالي لغرفته بلحظات– كان هو نفسه مشهد موته.

# 7

ذات يوم، توقفت عن تدوين ما تحكيه نعمة عن أبي في المخطوط، وقررت أن أكتب ما ظننته حكايتي الخاصة.

تقريباً كنتُ في الثامنة عشرة عندما أدرت ظهري لكتاب حيوات أبي الذي لا تكف صفحاته عن التوالد.

ظللت قبلها لنحو خمس سنوات أكتب، محتملاً الواجب الثقيل الذي كلفني أبي به، أترجم صوت نعمة إلى عبارات متلاحقة على تلك الأوراق التي أدخلتني المتاهة القاتمة للأبدية. تركت نفسي لذلك الضياع معزياً نفسي بأنني عثرت أخيراً على مهنة، لكن ذلك المعنى الهش لوجودي ما لبث أن تحلل تحت ثقل ذوباني في تلك المدن اللانهائية التي كان علي

أن أسرد حيواته وفناءاته في هواءاتها الشاحبة، أتنفسها مع الزفير الساخن لنعمة.

خمس سنوات تحول خلالها المخطوط الذي تسلمته وليداً، إلى مجلد لا يكف عن التضخم، مثل ابن يتمدد رغماً عن أنفي ليؤكد تقزمي.. ولأتذوق أخيراً الطعم القاسي للأبوة، والذي لم أكن أنوي تذوقه ذات يوم.

ربما كان الملل، ربما كان الضياع الذي حملني من الطفولة، بتيبس كفين ميتتين، لعالم الرجولة الصامت في كثافة الهواء المعبأ بالآيات، وهو يخذلني مرة بعد أخرى.

ربما المهمة الشاقة، وهي تفتح أمامي صحراوات غارقة في السرابات، لأنني كنت أخط الحيوات بخط الثلث، الذي كُتب به العنوان، واعتبرته علامة جعلت من اختياري إجباراً. كان علي أنَ أخط بسرعة قاتلة لكي لا أوقف سيولة الحكي، رغم ذلك كانت نعمة تتوقف كثيراً، مضطرة ومحبطة، لأنه كان من المستحيل ملاحقتها بخط متقن دون إخفاقات مفاجئة. لم يكن مسموحاً لي بكلمة غير متقنة في تجسدها. بإرادة غامضة، كانت تُمحى، لأعيد خطها كما يجب. إنه الألم القاسي للكمال.

ربما كانت نعمة، التي تتعرى في كل مرة أكثر، سبباً آخر لانتباهي الآخذ في التمزق، كنت أستجيب لصوتها بينما عليَّ أن أقاوم جسدها، شاعراً أن صوتها ذلك نفسه ينبع من بئر نارية بين فخذيها. وهكذا تأكدت أن ذلك المخطوط، حتى لو لم يكن يتمدد، لا أمل في إنهائه، طالما تخطه يدٌ من لحم ودم.

كنت أسبح في يأس الأيام المتشابهة، وقد أصبحت أقضي أكثر من نصف يومي بين تلك الجدران الشاحبة، مقصياً عن العالم، وآخذاً لحظة بعد أخرى في الاقتراب من المستحيل.

لم يكن كل ذلك شيئاً أمام الحضور المفاجئ لأمي، والذي باغتني في لحظة غير متوقعة، ليفسد كل شيء. حدث ذلك بفضل جدتي، وكأنها نفضت التراب فجأة عن ذكرى ابنتها لتبعثها أمامي في الوقت الذي وطنت فيه نفسي على أن أصبح خادماً نقياً لأبي.

منذ تنصيبي وصياً على أبي، تغيرت نظرات جدتي لي، كأنها لم ترغب لي في ذلك المجد الصغير. صارت عباراتها لي قليلة ومقتضبة، وراحت همهمتها المبتورة بعبارة "الله يرحمها" تزداد، حتى لم تعد تنطق على وجه التقريب بسواها في سنواتها الأخيرة، دون أن تسمح لنفسها أبداً بأن تبوح لي بأي حكاية من تلك التي كانت تدور داخل المدينة السرية لرأسها.

تحاملت المرأة الهشة، ونهضت، أمسكت بيدي، (مثلما كانت تفعل بأريحية قبل مجئ اللحظة التي أصبحتُ فيها من الرجال). دخلنا الفناء الذي كانت تربي فيه الطيور، أمرتني أن أجلب الفأس الصدئ النائم في الركن، وبيديها بدأت تحفر دون كلل، بقوة سحرية لا أعرف كيف واتتها فجأة، إلى أن برزت في باطن الأرض العميقة طاقة سحرية غير متوقعة. قالت: أخرج بيديك ما تركته المرحومة.

بدأت كالمسحور أُخرج تماثيل صغيرة من طين، وصحائف تحمل رسوماً عارية، وسيلاً من الكتب. وعندما انتصب بيننا ذلك الجبل الغريب

من الأشياء، قالت، هذا ما تركته أمك، لقد طلب جدك فور موتها أن أحرق كل هذه الأشياء التي كانت تغلق عليها غرفتها، التي تنام أنت فيها الآن، ولكني ظللت أحفر هنا ليوم كامل لدى خروجه حتى خبأتها، فعلت ذلك من أجلها لكني فعلته أيضاً من أجلك، وقد حان الوقت لتحصل عليها، إنه في النهاية ميراثك منها، وأنت الوحيد الذي يحق لك التصرف فيه.

فعلت جدتي ذلك ودخلت غرفتها، التي صارت محرمة علي منذ صرت رجلاً. فتحت الشبابيك واستلقت فوق سريرها، وما هي إلا لحظات حتى كانت مسوخ أبي قد حولتها إلى رماد.

# 8

كنت أعرف أن العقاب في انتظاري، لا محالة، ودفعني ذلك للمزيد من العصيان، كأنني كنت أكفر عن ذنبي باقتراف جميع الذنوب التي يمكن أن يتضاءل أمامها. إنها طريقة مريحة، مثل الطعنة النافذة المفاجئة، نصحتني بها نعمة بالذات، وهي تتلقى انتصابي أخيراً بين ساقيها، على بعد خطوات من جثمان أبي.

بين من ينظرون لي كمعجزة، ويتأملونني وكأنني قادم من عالم آخر، ومن ينادونني بابن الزنا، بسبب عداوتهم له بالأساس ورغبتهم في محوه، عشت ممزقاً، وفكرت أن هذه فكرة ملائمة لاقتراح حياتي على المخطوط. تشكلت أمامي صورة غائمة لشخص لا يملك صورة لأمه التي ماتت، أو

قُتلت، أو اختفت، فور أن لفظته كأنها تلقي بصقة أخيرة في وجه العالم الذي أغلق عليها باب مقبرة، ولا يعرف شيئاً عن أبيه الميت منذ مئات الأعوام.. والذي بشر قبل أن يموت بابن من صلبه سيأتي بعد سنوات طويلة، ثم اختار الفقيرة التي ذهبوا بها إليه مقيدة قبل أربعين عاماً، لتحمل بذرة ذلك الابن.

لكني، وأنا أبحث عن حكاية، اكتشفت أنني لا أملك على وجه التقريب سوى تخمين حكايتيهما ومحاولة القبض على الخيط المستحيل الذي جعل منهما في لحظة حكايةً واحدة. وجدتني أتخيل نهايته، في مشهد طويل، يبدأ بزيارة حارسه لي برسالة، وينتهي بمقابلتي له. بدأت من اللحظة (التي ربما يعيشها الآن مهتدياً بما كتبت، مُطلعاً على ما في رحمه من كلمات، ومحاكياً ما اقترحته له)، وقد وجد قداسته أخيراً تلفظ أنفاسها الأخيرة على يدي، محفورة في أوراق حياته البيضاء التي كانت تعد بحياة غير منتهية.

في حكايتي كان يستيقظ لآخر مرة، طالباً أن يأتوا له بابنه، الذي سيقطع الطريق في رحلة نهائية، ليعرف أخيراً الحقيقة التي تجنبته طويلاً قبل أن يقرر هو تجنبها، في الضريح، حيث سيرى وجه أبيه لأول وآخر مرة، لكن ماذا سيحدث في هذه اللحظة؟ ما مصير الابن؟ هذا ما كنت أفكر فيه في الأيام الأخيرة، وفي اللحظات التي سمعت فيها صوت طرقات نهايتي تخدش الباب على يد ذلك الحارس الذي بدا ملاكاً لموتي.

ذات صباح، وجدتني أفتح المخطوط، وأكتب، في الصفحة التي ولدت أثناء نومي: **"أرسل أبي في طلبي، فعرفت أنني سأموت اليوم"**.

# 9

عندما انصرف الحارس أخرجت المخطوط، وتأملت الصفحة المتبقية، بيضاء من كل سوء، تنتظر المشهد الأخير.

على العكس من حكاياته التي ظللت أعواماً أدونها، كان المخطوط يتناقص مع كتابة حياتي المقترحة حاملاً بذرة شعوري بالنهاية التي تدنو كلما تقدمت خطوة للأمام، وأحببت ذلك الشعور بالنهاية، ربما على العكس من جميع البشر، بعد أن تذوقت الطعم القاتم للخلود مقترناً باليأس من مجيء النقطة التي تغلق القوس.

ما إن بدأت، على صفحة بيضاء وليدة خلف ما أتممته من تدوين تراثه، حتى عوقبت باختفاء كل ما كتبت، ومع تقدمي، مع توقف الصفحات

عن التوالد، أصبحت أنا من يستعجل النهاية.

جففت نعمة بكائي، عندما أدرت ظهري له، عندما طلبت منها ألا تحكي لي مجدداً أي شيء، عندما سمحت لنفسي أن أنظر دون مواربة لعانتها وصدرها، وببساطة، وضعتني فوقها، غير عابئة بانكشاف السر عبر تأوهاتها، ولا بنار الحارس الذي يرعى خطيئتنا محتملاً البرد أمام الباب.

ربما شعرت في البداية بوجلي، فقالت: "إنه مجنون بي، لكن لا يجرؤ على فعل شيء. "العبيد دائماً على هذا النحو، ينكرون الله نفسه للإبقاء على سادتهم".

وعندما كان خيط الندم يبرز بعد أن ينفصل جسدانا، كانت تقول: "نحن لا نرتكب إثماً، أنا أحبك فيه، وأحبه في الله". كانت تقول: "ماؤنا ليس دنساً". بعد ذلك، لم يعد أحدنا بحاجة ليقول شيئاً أو ليبرر بحر الذنب العميق الذي كنا نتهادى فيه بين الجدران الطاهرة وكأننا خارج العالم.

ذات يوم تجرأت وقالت، طالما تطمح في تغيير المكتوب، فإليك حكايتي، يمكنك أن تضمها لروايتك إن أردت، فقد صدقتُ دائماً أنه انتقم لحياته بموتنا. اسمع أيها الصغير.

أبوك هذا كان عجوزاً جداً، حتى تشك أنه بدأ حياته عجوزاً، إلا أن الموت ظل دائماً بعيداً عنه.. حد أن الرجل كان، على العكس من جميع البشر، ينتظر مجيئه، ليس بخوف أو رهبة.. لكن بتصالحٍ عذب،

وبأمنية أكيدة أن يتذكره التراب قبل أن يتحول لكومة عظام حقيقية داخلٍ جلبابه.

كان تجاوز المائة من عمره منذ سنين كثيرة، صارت تشكل وحدها عمراً مستقلاً، و لم يعد شيء في جسده يعمل سوى أنفاسه، التي تدخل وتخرج في آلية لتمنحه حياة لم يعد بحاجةٍ إليها.

كان يستيقظ كل صباح ليكتشف أنه فقد وظيفةً جديدةً في جسده، دون اندهاش، لكن بأمنية أكيدة أن تكون تلك علامة من الموت الذي أدار ظهره له بكل قسوة، وضنٍ عليه بيديه القاسيتين اللتين لا تتوقفان عن العمل. وبنظرةٍ واحدة على بيوت البلدة، والسيدات المتشحات بالسواد من الذاهبات إلى المقابر والعائدات منها، كان العجوز يدرك –بحسد– أن الموت لا يزال يمارس مهماته بنفس الخفة والنشاط اللذين عهدهما فيه. وكان يستشعر –وهذا هو الأسوأ– نظرات حسد مضادة من الأمهات الحزينات على أبناء رحلوا في ريعان الشباب.. وزوجات حديثات ترمَّلن بعد أوقات لذة قصيرة، يتساءلن عن طول عمره الذي يكفي عدة أشخاص كي يعيشوا ويموتوا في أعمارهم الطبيعية.

أوشك على تصديق الواقعة التي حكتها له أمه في طفولته. كانت أشهر ندَّابة في البلدة و لم يكن الأهالي يعرفون منها سوى الصراخ على من يغادرون الحياة. وعندما رُزقت به بعد سنوات زواج طويلة بلا نسل، كانت واقعة غريبة، واقعة لا تُصدق، حتى أن الناس، أولئك النمامين الفضوليين بلا سبب، أحسوا أن صراخها –بينما تلد الطفل– هو صراخ

شخص يودع راحلاً إلى مقبرته وليس صراخ امرأة تمنح الحياة لقطعة من لحمها. أيقنت البلدة أن الطفل لن يعيش طويلاً لأنه كان هزيلاً وشاحباً.. وفضلاً عن ذلك ورثت عيناه عن أمه نظرة الحزن المرعبة التي لم تفارق قسماتها يوماً. أخبرته أمه أنه مات بالفعل فور استقبال الحياة له، توقفت أنفاسه وسكن جسده وتيبس قلبه.. ثم برد جثمانه وازرق لونه كأي ميت. أغلقوا عينيه الجاحظتين ولفوه جيداً تمهيداً لتوديعه، ووجدت أمه نفسها –وهي التي أدمنت الصراخ على الغرباء– تعجز عن التعبير عن ألمها الوحيد الحقيقي ولو بصرخة. انحبس صوتها وغابت الدموع، التي طالما ذرفت جبالاً منها بالمجان، عن عينيها المتألمتين. وبينما يستعدون لإخراجه من البيت.. عادت الدماء إليه فجأة.. وفوجئوا به يطلق ضحكة شيطانية ماجنة.. شاهد الأهلُ فيها أشباحاً كثيرة تنطلق هاربةً من الغرفة. يومها قال حكيمٌ لأمه: "الأطفال وحدهم يستطيعون ملاعبة الموت وخداعه.. ولكن عقابهم أنهم حين يشيخون يخاصمهم الموت.. يتركهم مُعذبين يتمنون التفاتة واحدةً منه دون أن يعبأ بهم.. بل إنه إمعاناً في إغاظتهم، يحصد أرواح الشباب والأطفال أمام عيونهم الميتة". اندهش العجوز عندما سمع الحكاية من أمه لأول مرة، وسألها لماذا عليه أن يُعاقَب إذا كان حينها لم يكن يعي شيئاً.. ولا يذكر أنه فعل ذلك عن قصد، ولكن أمه قالت له بحسم: "لا يهم كل ذلك.. المهم أنك أهنته وقللت من هيبته وشأنه في أرجاء البلدة.. حتى أنه بعد ذلك لم يعد الناس يصدقون إذا رحل شخص أنه مات فعلاً.. وصار كل ميت جديد ينتظر أياماً إلى أن يدفن.. لأن الأهالي كانوا ينتظرون عودته

للحياة ضاحكاً كما فعلت أنت.. لقد صار الناس من يومها لا يُصدقون الموت وذلك هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث لذلك الرجل المهيب الذي لا يقول كلمته مرتين".

في طفولته وشبابه استمتع بالحكاية، بيقين أن الخلود هو حلم أي إنسان. كان سعيداً لأنه جرب حظه مع الموت مبكراً وانتهى الأمر.. معتبراً ما حدث معه معجزة ستصب في صالحه.. غير أنه –ومع تقدمه المفرط في العمر، وبعد أن رأى أحفاد أحفاده يموتون أمام عينيه في أعمارهم الطبيعية– أدرك أن الخلودَ وهمٌ قاس.. لأن لا شيء أكثر إيلاماً من أن تحط ذبابة بين عينيك دون أن تكون قـادراً على هشها. ورغم أنه توقف نهائياً –ومنذ سنين– عن الطعام والشراب، إلا أنه ظل حياً.. وأدرك أن الموتَ جادٌ في انتقامه منه، وأن الحل الوحيد هو أن يُقتَل.. ولكنه عاد ليكتشف بحسرة أنه لم يعد يقو على الإتيان بشيء: لا أن يقتل نفسه، ولا أن يفتعل مشاجرة أوحتى يستأجر شخصاً ليقتله. فقط في أحلامه كان يغيب تماماً، حتى يكاد يصدق أنه قد غادر الأرض إلى الأبد.. ولكنه كان دائماً يستيقظ مهما طالت رحلته المؤقتة في الأبدية.

ذات يوم قرر أن يصطنع الموت، فلم يعد يخرج من منزله المتهدم ذي الطابق الواحد.. وتعوَّد أن ينام طويلا.. وبالتدريج لم يعد يستيقظ.. وبعد سنين تحول المنزل إلى ضريح يعيش بداخله شخصٌ حالم، يراه الناس وهو يتنفس.. مغمض العينين، شاحب الجسد.. يطلب منه الناس العمر المديد لهم ولأبنائهم.. فيقبل بابتسامة زاهد –كانوا يظنونها نعيماً– غير مدركين أنها لم تكن سوى خدعته السوداء.. فمع كل شخص يتمنى الحياة كان

العجوز الشاحب يضحك في أعماقه، لتهتز جدران الضريح في معجزة جديدة.. سعيداً بتضاعف عدد زبائنه الذين سيشاركونه عذاب الخلود، والذين كان يمنح أسماءهم للموت أولاً بأول.. ليبتسم بدوره.

كتبتها خلفها، بخطي العاري، خط يدي الذي طالما تنكر خلف أقنعة الخط العربي بينما أكدس الآيات على جدرانه وأرد على رسائله وأُسود مخطوطه.

وكان الجمال، الجمال الفادح، الجمال المكتمل قد أصبح سجناً، حتى أنني لم أعد قادراً على التعرف على يدي.

# 10

أخرجت رأسي من الشباك، ورأيت العالم الذي بدأ يغرق في النور.

شمس أول الصباح قمر محترق، بينما يترنح الحارس مبتعداً كطائر أرضي.

بينما أرقب تلاشيه التدريجي، تلمست، لأول مرة، شبح قاطع الطريق القديم الذي كانه. كان دخان السيجارة ينبعث كأنه خارج من أذنيه حتى ابتلعته الشبورة أخيراً، وتمنيت لو اختفى، لو أعاقه شيء عن الوصول.

السماء نفسها، تبدو مثل سقف بعيد صُنع على عجل. لم تعد تعبرها الطارات التي تذكر البلدة النائمة أننا في حرب. انتهت الحرب، عاد من عاد وبقى من بقى، لكن من بقوا كانوا إما مفقودين أو أمواتاً.

في ذلك الضوء الملتبس، في السلام الطارئ لاقتراب النهاية، كان يمكن لشخص يقف في نافذة أن يرى المدينة كلها تغرق في حلم متكرر.. لكني كنت أطل على الطريق البعيد، أتلمس العظام التي أيقظها نور الله.

كأنني تذكرت فجأة، من جديد، أنني ابن رجل مقدس. ففي اللحظة التي أغلقت فيها الباب خلف الحارس شعرت بأنفاس الرجل الميت تلفح جدران الشقة. وفي الضوء الشبحي، أمكن لي أن أشاهد هيكلاً عظمياً، له حدقتان محتفظتان بالحياة، ولحية بيضاء لم تتوقف يوماً عن النمو.

استقرت هذه الصورة المرعبة لأبي في ذهني منذ طفولتي، إلى أن جسدتها في لوحة مرتجلة بالألوان الزيتية استقرت على أحد الحوائط. لاحظت -أو ربما هُيئ لي- ارتعادة الحارس عندما تطلع إليها، ما أشعرني أنني ربما اقتربت كثيراً من الحقيقة، اقتربت من الخطر.

أشعلت سيجارة جديدة، شاعراً بقدر من تأنيب الضمير كدت أتعود على إزاحته. حاولت أن أنتزع كتاباً بشكل عشوائي كي أقرأ، لكني قذفت به بسرعة. لقد أتيت على كل كتب أمي، منتهياً لخواء آخر لم أكن أظن أن أمي ستنتهي بي إليه مثلما فعل أبي.

لقد أكملت العشرين، ولم أصبح شيئاً على الإطلاق، ليس بالضبط لفشلي، لكن في الحقيقة (الآن أدرك) لأني لم أرد. في لحظة نزق فكرت أن أسأل الحارس المقبض (الذي بدا في تجليه مع مطلع الفجر أكثر رعباً من أي قابض أرواح تخيلته) عن "نعمة" التي اختفت، لكني تراجعت، مثلما أخذت نعمة تتراجع عن حياتي طيلة الأشهر الماضية، بآلام متدرجة في حدتها، كأنها تغادر دمي.

فكرت، هل سيصدقني الحارس إن قلت له إن ذلك المشهد الذي جمعنا منذ دقائق هو أول فصول المخطوط؟

لقد تحطمت حياتي، على هشاشتها، فجأة.

قمت بجولة دقيقة في الشقة، متأملاً كل ما سأودعه، عندما ألحت علي مهمة أخيرة، أن أقرأ الحفنة الأخيرة من الرسائل المكتوبة له، وأرد عليها.

صارت هذه مهنتي الوحيدة الحقيقية في ذلك العام الأخير. واجبي الحقيقي تجاه أناس مستعدين لتصديق أي شيء، لإرجاء الموت قليلاً ولحلم بسيط بامتلاك مقبرة. ليس المخطوط الذي أصر على ألا يموت، ليستً نار نعمة ولاحتى شبح أمي الذي حلمت بامتلاكه كأنه قادر على العودة للحياة بالبحث عنه، وليست الرواية التي تبقت فيها صفحة بيضاء ما زلت عاجزاً على كتابة نهايتي فيها.

لقد اختار لي أبي أشياء كثيرة، لم يكن من بينها أن أرد على بريده الذي يسبح في السماء المغلقة لصندوق النذور، دون أمل في سماء أبعد. ربما فعلت ذلك رغماً عن مشيئته التي لم أستطع أبداً الوقوف عليها، لأرد على الناس نيابة عنه، بصوت قادم من الآخرة.. لكنها، في الحقيقة، منحت معجزته منعطفها الحاسم، بقدر ما جعلت مني الشخص الذي طالما تمنيته: أعرف كل سر في المدينة، ولا أحد يعلم عني شيئاً.

دون أن أقصد، صرتُ الشخصَ الوحيد في هذه المدينة الذي يطمئن الناس من خلاله على آخرتهم.

أكاد أجزم أنه لا يوجد شخص هنا، لم أطلع على ارتعاشات خط يده.

حتى الذين يشككون في وجوده، الذين يعتبرونني ابن زنا.. الذين لا يصدقون أن امي، الشابة الجميلة التي كانت، عشقته وضاجعته في موته، وأنه شاء أن تكون أم ابنه الوحيد رغم موته منذ مئات السنين بلا نسل.. كل هؤلاء، كانوا يتركون له الرسائل في النهاية: التضرعات، الاعترافات، الأسئلة المعذبة، ودموع الندم على مابدر منهم.

إنني أتألم الآن، مثلما ظللت أتألم. لا. إنني أتألم بشكل أكثر خفوتا. ألم التسليم، ألم الشخص الذي يعرف ولا يملك إلا الابتسام. قالت نعمة في آخر مرة، "لن تراني بعد الآن"، أنت حر، لم تعد عبداً لجسدي.

هذه الخادمة الفقيرة، الخمسينية بتجاعيد تصلح لمرور أنهار نحيلة من المياه فوق جسدها، صارت امرأتي الوحيدة، منذ عبثت بي وأنا أودع الطفولة، لتعرفني أي شيء بالضبط أملك بين فخذي، جمال دائخ، سري على وجه التقريب، ترك نفسه في مهب الرجل الصالح.

مرت الشهور الأخيرة بلقاءات فاترة بيننا، صارت تتحدث عنه قليلاً، وتشد جسدي إليها بآلية على فترات متباعدة، دون أن توجه لعيني تلك النظرات الملتهبة القديمة. كانت نظرة واحدة لجسدي، لمسة من أنفها في لحمي، كافيةً لتعرف الخادمة الشائخة أن الجسد الذي كانت تمتلكه تبدد هو الآخر، كأن الفقيرة المتعالية منذورةً للضياع بين سيد كتب عليها الفناء تحت رماده وابن استيقظ أخيراً من ذلك الرماد نفسه رغماً عن إرادتها لينفض عن نفسه غبار سنوات آخذة في محوه، أكدتها هي من حيث أرادت أن تمحوها.

عندما حاولت، كأي شخص ينبغي أن يحاول، أن أعرف واحدة أخرى، فتاة، امرأة، عجزت. ثم قالت لي: "لا تحاول". حولتني نعمة لعبد لها، و لم أرفض، لم أحاول فك الربط، لكنها تركتني، ذات صباح تركتني ورحلت، معيدةً لي حريتي، عندما لم أعد بحاجة لها، بالضبط مثلما فعلت أمي قديماً.

تبخرت، رغم أني كنت أعثر فور دخولي الضريح على الرائحة الطازجة لجلدها، متأكداً أنها ترقد في مكان ما بين هذه الجدران. يستقبلني الحارس، صامتاً كأنه لو نطق فستسقط المرأة من فمه.

وبين جدران هذا البيت، محاولاً أن أنسى، لم أطلب واحدة إلا وأتت إلي.. في اليوم نفسه.. في الليلة نفسها.. لا، بل في اللحظة ذاتها. تترك أي واحدة أي شيء وتأتي لتستلقي على هذا السرير. كل نساء مدينتنا يتعاملن مع رغبتي كأمر مقدس. يخشين الرفض، كي لا تحل اللعنة عليهن. يغضضن البصر عن الآيات التي تتصارع بامتداد حوائط الشقة. يخلعن الأحجبة، النقابات، الإسدالات الطويلة، لتقفز أثداؤهن دفعة واحدة في وجهي. يبكين تحتي. يذرفن دموعاً أعرف أنها لم تنحدر من مجريات المتعة، بل من الندم.. ترى، كم واحدة أمتعتها؟ كم واحدة صرخت من فحولتي؟ كم واحدة أرادته؟

ما تزال هبات الرمل تنفجر تحت الأقدام التي تخطو فوق شوارع ترابية، لم تختف منها تماماً العقارب والثعابين. من هنا، لا يمكنني أن أرى قبة الضريح السوداء البعيدة، فوقها تتململ طيور بحدقات معتمة. كانت

نعمة ترتعد عندما تأتي على ذكرها، لأنها كانت فوق رأسينا تماماً.

"لقد عبرت أمك الستائر الثقيلة، عندما كان العالم نائماً، عندما كنا نحن نغط في مناماتنا العميقة، عندما كنت بالكاد أحلم به كانت هي تعبر ذلك البرزخ الصغير وتراه، متجسداً، ليس حتى مثلما أراه الآن، فقد كانت مجذوبة، قادمة من خلف الستائر الثقيلة لذلك العالم، من الضفة الأخرى حيث يغرس الجنون ساقيه الثقيلتين في أرض لزقة. وقد عبرت الستائر الفولاذية حد أنها مزقتها مثلما تسفك سكين الدم الناعم للحرير. وحيث حدث كل شيء، وهو يستيقظ أخيراً من منام.

لا أعرف أين ذهبوا بها. لقد أخفيناها إلى أن وضعت، وعندما كان يجب أن ينكشف كل شيء، كان يجب أن تنجو أنت.

وضعت جبل الرسائل أمامي. يستحيل أن أقرأها جميعها فضلاً عن الرد عليها. وابتسمت فجأة.. عندما برق في ذهني أنني مطالب بالرد على أسئلة تخص الآخرة، رغم أنني سأذهب إليها قبل كل هؤلاء. أمامي الآن حل من اثنين: إما أن أنتقي بعشوائية عدداً قليلاً من الرسائل وأرد عليها، أو أن أكرر رداً واحداً من تلك التي تصلح للجميع.. والتي لجأت إليها أكثر من مرة في أوقات ضجري.

لم أعرف أبداً لم تعاملت مع طقس كهذا كالتزام.. كان يكفي أن أقرأ الرسائل وأستمتع بالتلصص. ثم برز سؤال آخر قتلني فجأة: ألم أكن أدخر ذلك ليوم ما سأنتقم فيه من شخص هنا أو أمثل بآخر هناك؟ لقد جاء ذلك اليوم، وليس عليَّ أن أموت قبل أن أرد عدداً من الصفعات التي طالما أرجأتها. لقد ظل الناس هنا لمئات السنوات يكتبون رسائل لا ينتظرون

رداً عليها.. حتى وقعت المعجزة ذات يوم، وفي وقت كان من المستحيل فيه تقبل معجزة جديدة.. توجه الناس ذات يوم للضريح ليفاجأوا بأن الرجل الميت بدأ يرد على الرسائل.

كنت شاخصاً في التضرعات المتشابهة، بينما أفكر في صفحة المخطوط المتبقية، إلى أن ارتجفت يداي.

أمام عيني، كان الخط الأليف لامرأة أعرفها، يقرر في كلمات قليلة أنها ستضع طفلاً من صلبي.

كَتبَت نعمة للرجل المقدس: سيكون لك حفيد.

# حيوات الرجل الميت

**خُضنا بحوراً وقفت الأنبياء بسواحلها..**

# أ

قطع صفير القطار موته بينما كان يحلم بمدينة تطل على البحر.. واندهش، لأنها المرة الأولى التي يستيقظ فيها من حلم قبل أن يرى مشهد دفنه.

كانت أيضاً المرة الأولى التي يوقظه فيها باعثٌ واقعي، فلمئات السنوات فشلت كل الأصوات، والمحاولات اليائسة لخادماته المتعاقبات، في انتزاعه من مناماته.

حدث ذلك (في الجمعة اليتيمة، وبينما ظل صائماً في أحلامه) ليوقظ كل السنوات المهدرة في مناماته، مجبراً إياه على مواجهة الدنيا

لآخر مرة. لكنه عندما استيقظ هنا، مكتشفاً أنه ما يزال معلقاً في مدينة المنام هناك، ارتعد، من فكرة أنه للمرة الأولى يعيش مرتين في الوقت ذاته.

كان يستيقظ وحده في كل مرة، بعد الانتهاء من مواراته التراب في مدينة نومه، غير مصدق أنه حي في مكانه، أن له جسداً ميتاً في الحلم، تراباً في مقابر المنام.

أول شيء فكر فيه وهو يصحو مجبراً لأول مرة، هو هذا القطار نفسه، والذي يكرهه تماماً، فهو صغير، يعود لبدايات قرن مضى، ويُذكِّره ـ كلما رآه من نافذته ـ بنعش أصفر.

يعبر بمحاذاة ضريحه، يلتف حوله في قوس هادر قبل أن يواصل طريقه، ترتج القبة السوداء، يهتز سريره، وتتساقط قطع من طلاء الآيات القرآنية على الأرض، لماذا لا يخشاني سائقو القطار؟ لا يعرف.

إنه قطار المدينة الوحيد. يحمل البضائع مع البشر.. وفي الوقت الذي تطل فيه الوجوه الآدمية عبر نوافذه الخالية من الزجاج، تبرز وجوهٌ أخرى، بالنظرة نفسها، لحيوانات وطيور. وجوه حمير متأملة، بالعيون البِئرية الكبيرة والحزينة.. ووجوه دجاجات فزعة تصرخ كأن ألسنتها مقطوعة، وأبقار بحدقات تائهة كالمرايا.. ومن بين جميع هذه العيون تلوح نظرات الريفيات المكحولة. جميلات نساء مدينتي، وحزينات، يخفين شعورهن، تحت أحجبة ثقيلة، وشَعَر، مثلما شعر كل

مرة، ومثلما سيشعر للأبد (القريب مثل معجزة في متناول يده)، أن النساء المؤمنات والحزينات، قذفن إليه بنظراتهن نفسها، متخليات طوعاً عن العيون التي عرفت بكاءً طويلاً، لكي ينظر عوضاً عنهن.

جميع سائقي هذا القطار كانوا أصدقاءه على نحوٍ ما. جميعهم ينتحرون بعد فترة قصيرة من العمل، تاركين الآلة المعدنية البدائية تترنح وحدها للحظات، قبل أن تتوقف عجلاتها فجأة.. قبالة شباك غرفة نومه، وحيث يكون دائماً قد استيقظ قبلها بدقائق.

ربما نسي لماذا يبث فيه هذا القطار كل هذه الكآبة، فلم يكن مقتنعاً أن انتحار سائقيه، أو حتى ألوانه الكئيبة المستمدة من لون التراب، كاف كي يجعله منقبضاً.

تأمَّل عظامه، كان مبتلاً، وكانت رائحة البحر تقتل أنفه، لقد أيقظوني قبل حتى أن أجف، وعندما تجرأ ليلعق كف يده، أدرك أي ماء مالح غرق فيه. وهنا تذكر أن قطار الواقع عندما اخترق منامه، كان يتنسم الماء مستسلماً لقدرٍ لم يجربه من قبل، وبالكاد كانت الأيادي تنتشله من قاع البحر ثم بدأت الهمهمات تدور حول طريقة دفنه.

ظل متحيراً، يفكر في أنها المرة الأولى التي يوقظه فيها صفير هذا القطار، يفكر في جثمانه بتلك المدينة الساحلية البعيدة، لا يعرف كيف سيدفن ولا في أي مقبرة.

الماء، إنه إحدى معجزاته، ألا يقولون إنه كان يمشي على الماء؟ لكنه هذه المرة خذل قدرته على الطفو وعلى الخطو بقدمين ثابتتين فوق هشاشة الموج ـكانت هذه أولى العلامات، سأموت في الواقع، فقد تحطمت واحدة من كراماتي على صخرة النوم الخشنةـ وما الذي جذبني للماء؟ بالتأكيد كنت واثقاً أنني أجيد العوم، على الأقل العوم. فشل في تذكر المنام، إنه إخفاقٌ آخر، لأن كل ما يحلم به كان ينبغي أن يُدوَّن.

ربما غرقتُ في هذا البحر. بحر مدينتي الذي لم يوجد. وأشار بإصبعه ناحية الجدار الشرقي، كأنه يخرقه ليصل إلى موج الوهم الذي يصطدم به من الخارج. في أزمنة أخرى كانت إشارة الإصبع كافيةً ليتهدم الجدار ويأتي البحر ليجلس تحت قدميه كي يتأكد من شكوكه، لكن إصبعه الآن لم يعد أكثر من ذلك الحيوان النحيل والغارق في القدم، بإظفر ممتد، يملك القدرة بالكاد على اختراق الهواء، الذي بدا الآن جداراً سميكاً يستطيع وحده أن يراه. سمع اصطدام الموج بالجدران، وعاد يشعر بعزلة الطريق الخارج من فم المدينة مثل لسانٍ جاف حاملاً، فقط، عظامه. لماذا حلم بهذا البحر؟ بحر مدينته المفقود؟ هل مت إذن في مدينتي؟ إن هذا يعني أنني أخيراً مت في الواقع.

وهيّئ له أن ثمة هديراً آخر، هدير أصوات بشرية قادمة من بعيد. وفكر للحظة أن هذا الهدير قد يكون من أيقظه وليس صراخ القطار، لكنه استبعد تلك الفكرة تماماً، فصوت الناس هنا، في هذه الأنحاء،

لا يمكن أن يكون من القوة حد أن يوقظه.

من جديد يصيغ السمع، ومن جديد يتأكد أن ثمة هديراً له صوت إنساني لكن له مذاق بحر في أذنيه. إنهما مكتملتان وقادرتان على اصطياد أشد الأصوات رهافة في ذلك الفجر. من شحذهما هكذا كسكينين يقتلان الصمت؟ يشتد زحف الماء كموجةٍ عاتية حتى يُهيأ له أنه يبلغ عتباته، ثم يرتد متراجعاً كوشيشٍ خافت. مدٌ وجزرٌ يتبادلان اللعب أخيراً، لكن ماذا يريدان؟ إلام سيصِلان في نهاية المطاف؟ فكر أن ذلك قد يكون له علاقة بمنامه الأخير، فلموج المنام الهادر ذلك الصدى الذي يبدو أصوات ملايين الأشخاص الذين يقتربون حثيثاً، يجتازون واحداً تلو الآخر من حصون بقائه، ليصلوا إلى ضريحه.

تحسس الحصيرة الناشفة تحت قامته. كانت دائماً معي، بساطاً وكفناً. يعبر بها السموات الثقيلة للمنام ليحط في الواقع، (ما يقول عنه أناسٌ ما في مكان ما أنه واقعهم)، متقلباً فوق نتوءاتها، فوق رسومها التي لم تذبل يوماً ولم تهترئ في حرب عظامه. كل واقع في هذه الدنيا، حلمُ شخصٍ ميت.

قبل أي شيء، قبل حتى أن يأمر خادمته بالمجئ، وجد نفسه يستدعي البدايات، أبواب المنامات، وفكر، بالطريقة الوحيدة التي يمكن بها لميت أن يولد: كيف لي أن أبدأ؟ ذلك أن حلماً لم يكن يجدر به أن يسبق الآخر.. (ذلك أن كل حلم كان واقعاً بالنسبة لحلم آخر

وحلماً في واقع ثالث). ليس ثمة زمن، لا وجود لذلك الخط المستقيم بين لحظتين. يبدأ من حيث هو لا أحد. إنها ليست بداية، لكنها اقتراح للإمساك بطرف متاهة. المدينة الأولى لم يدخلها، كانت مدينة سرابات، ذلك أنها كلما اقتربت، كلما لاحت بواباتها وقبابها وبيوتها، ابتعدت وتناءت. مات على أعتابها، مقتولاً في بئر معتمة. ذاق الفناء قبل أن تناديه الحياة، لكن البئر صارت ضريحاً تحت الأرض، يهبط الناس إليه بسلم حفرته الأقدام في صخر الانزلاق الأملس الذي كان بلا رجعة عندما استسلم له. ضريح تتوجه قبة، فوق جسده المتحلل في الماء الملحي، الذي سيمد الناس أفواههم فيه فيما بعد ليشفيهم.

باغته المنام منفتحاً على صحراء شاسعة، حتى أن يده مزقت ملاءة السرير متشبثةً بأمل العودة إلى الواقع، لكن فخ الغفوة كان أقوى من كافة محاولات الجسد اليائس. مشى كثيراً في الصحراء القاحلة، واستبد به الجوع والعطش، لمح بئراً على مبعدة.. البئر فوق ربوة، والماء ينسال منها متمدداً كأفعى بين قدميه. لم يصدق نفسه، فالماء راح يدغدغ قدميه المتشققتين ويرطبهما وهو ما جعله يتأكد أن ما رآه لم يكن سراباً. هكذا استجمع قوته الخائرة وحث سيره حتى وصل إلى الربوة. كان الماء بمجرد سقوطه يذوب في الرمل فلم يتمكن من مد فمه ليحصل حتى على قطرات شحيحة من الماء. في هذه اللحظة ظهرت له امرأة ملتصقة برجل، كلاهما عجوزان، ولهما الملامح بالضبط، فيما عدا أن الرجل كانت له لحية بيضاء طويلة بينما كان للمرأة شعر بلون القطن تلامس ذؤابات ضفائره الأرض.

ارتعد من المشهد المرعب. وقبل أن يستجمع شجاعته سمع صوتاً واحداً ـلا هو بصوت الرجال ولا بصوت النساءـ ينطلق من فميهما في نفس اللحظة.

"نحن حارسا هذه البئر.. ونحب أن نحذرك، لم ينزل إليها شخص وعاد منها حياً أبداً".

سأل وقد تغلبت دهشته على رعبه لماذا؟ فأجاب الصوت، لأنك عندما تصل إليها ستجد نفسك مضطراً للصعود لتصل إلى المياه وليس للهبوط كما هو الحال مع كل الآبار.. المياه تجري في سقف البئر حول فتحتها أيها المسافر".

قال وقد قتله الفضول، وكيف تشربان؟، ورد الصوت السحيق نفسه كأنه صوت البئر، نحن لا نشرب أبداً، إننا الشخصان الأشد عطشاً في هذا العالم، ومنذ ولدنا نتمنى أن ننفصل ليشق كل منا حياته، ولكن الشرط أيها المسافر أن نشرب، جرعة ماء واحدة ستكفل لنا أن ننفصل وتصير لكل منا حياته. كاد أن يبتسم، (لكنه ابتسم الآن وهو يتذكر توأمي الرعب اللذين صنعا ظهيرته الأولى في الضفة الأخرى من اليقظة). كانا عجوزين حتى أن الشيخوخة نفسها يصعب أن تتعرف عليهما، ولا يبدو أن أمامهما من العمر ما يكفي لتحقيق هذه الأحلام المستحيلة حتى لو انفصلا، بادرهما بسؤال جديد، ولماذا لا تغادران هذا المكان وتبحثان عن الماء في مكان آخر؟، لأننا نذرنا لهذه المهمة..

فقد ولدنا بهذه اللعنة جزاء لأبينا الذي كان يضن بالماء على الهائمين من أمثالك، وكان عقابه أن يموت عطشاً، وألا تتناسل ذريته إلا إن نجح شخص في خوض الاختبار. وأكملا، لقد حذرناك، وأطلعناك على كل شيء كي تكون على علم من البداية، والاختيار في النهاية لك.

وافق، لا لسبب إلا لأن العطش يكاد يفتك به، لأن الموت غرقاً ليس أشد قسوة من الفناء عطشاً، هكذا كان يعتقد في حينها، وقد تأكد أنه لا يملك اختياراً في الحقيقة. قال، سأفعل. وفي هذه اللحظة أخرجت يد الرجل مفتاحاً صدئاً من صدر المرأة، وقال الصوت، هذا مفتاح باب البئر، لكن لا تصحبه معك إلى الداخل، اتركه في الباب، لكي لا يُغلق دونك، لكي نتمكن من فتحه وانتشال جثمانك.

بلهفة ورهبة أدار المفتاح الضخم الصديء في الباب الخشبي السميك حائل اللون. دخل إلى مايشبه غرفة دائرية مصمتة الجدران، ورأى الماء عالياً، يترقرق في سقف البئر دون أن تسقط منه قطرة، وكان عليه أن يتسلق الحوائط الدائرية الملساء ليصل إليه في أعلى نقطة. لكن دهشته الحقيقية جاءت عندما طاوعته الحوائط، ووجد نفسه يلتصق بها ويعلو بيسر مثل بُرص، حتى بلغ الماء، أخذ يشرب إلى أن ارتوى تماماً، وابتعد العطش كحرمان لم يجربه من قبل، ابتعد حد أنه كره الامتلاء واحتقره وحقد عليه في أعماقه، غير مصدق أنه أنجز بهذه السهولة المهمة التي فشل فيها كل من سبقوه عبر مئات السنوات. لكنه، مكتملاً بالماء الذي أغرق أوردته، فوجئ بالبئر تنقلب، حتى صار الماء في

الأسفل والأرض الجافة هي السقف. في هذه اللحظة وجد نفسه يغرق في تيار الماء الرهيب، وراح يصرخ، يستغيث وهو يتقيأ كل الماء الذي أحياه من بعد موت، وهنا أطل عليه الوجهان مبتسمين. لقد أعدت الاتزان للبئر فأعدت الاتزان للعالم، من أنت؟ أنت يا من لا تتكرر؟ سيدفن في مكانه، على أعتاب مدينة السرابات التي ستصير مدينة حقيقية عندما يصبح بمقدور الناس أن يجدوا بئراً، يتخبط الماء بين جدرانها وهو يطفو فوقه شاحباً ومبتسماً، بالضبط مثلما يفعل الآن.

# ب

.. **وأطل**، من بين أسيجة شباكه الصغير.

المدينة هناك، ميتة في قرص شمس غارب، والضريح هنا يستقبل الفجر. لم تمُت السماء بعد في هذه البقعة، ما تزال رأسي مشتعلة بنور الله.

الحياة مرة أخرى، وجميع أولئك المعذبين، جاءوا متوضئين ليُقبِّلوا عتبته.

يرى الطريق من جديد، يبصر طرفه البعيد في لمحة وهو يغيب في ليل المقابر العمومية، لا يتغير، كأن الزمن لا يمر هنا، في أبديته.

يحاول أن يسترد قدراً من سكينته، ليهزم صراخ القطار الذي امتد إلى عظامه، وبدأ يصفر في تجاويف هيكله العظمي.

اشتعل الزحام، هَبَّ الشجار عند عتبته، وتسللت الأيادي غير المصدقة مشتجرةً عبر فرجات الشباك الصغير، من بين أسيجة النحاس الصدئة. يرون رأسه يتحرك ويبادلهم النظر، الجمجمة العارية بالعينين اللتين لم يُفقدهما الموت شيئاً من بريق جميع الأزمنة القادرة على غمر الكون بالعمى. الوجوه الملتصقة بالأسيجة، التي تناطحها بغية تقويضها ورؤيته مكتملاً في مربع الضوء، تبحث عن يدٍ تقبلها، بكل هذه الشفاه كالصحروات التي لم تذق قطرة ماء كأنما منذ بدء الخليقة. تكاد تفقد الحياة على عتبة حياته الطارئة التي أطلت الآن على اللون الأشد دكنة للذبول والاحتضار.

يصرخـــون أكثر غير مصدقين أعينهـــم التي تراقب تجسده. يلصق وجهه بالشباك ويمد يديه فتنهـــال القبل المؤلمة (كأن ذؤابات نصال مشحـــوذة من تفعل) على عظـــام الكفين الشائختـــين. أتت البنات الضريرات، تقودهن أمهاتهـــن، حاملات حفنات كحل تسيل من بين أكفهن المرتعشة، في انتظـــار أن يضع بيديه الكريمتين حفنات الكحل على عيونهن، لتعيد لهن النظر.

يشخص للأفق، خلف غابة الرؤوس، يربض جبل الكحل، داكن الزرقة مثل حيوانٍ هائل تَيبَّس في مكانه. يرى لمعته في الشمس

المنعكسه من سماء المدينة هناك، والتي لم تصل هنا بعد، في هذه اللحظة التي فقدها من احتضار الضوء لكي يقبض عليها وهي تُضاعف الزرقة حد أنها توشك على قتلها، يرى هدير موجات المسحوق الناعم، وهباته المتطايرة. ذات يوم كان لهذا الجبل امرأة تملكه. جاءت به، حملته على كتفيها حتى اختارت هذه البقعة، كيف فعلت؟ كان ذلك في زمن آخر. الآن، كل عيون المدينة مكحولة. عيون النساء والأطفال، الواسعة، مثل خوف نهاية الليل الغامض. لكن، ما فائدة الكحل دون يدٍ تجيد قراءة سره؟

يأتيه هنا أقوى الرجال، جميع الرجال الذين كانوا يديرون الأنحاء بنظرة، بنفثة غضب، جميعهم يأتون ويبكون. يتمسحون بعتباته، يتركون قطيع رسائل وأوراقاً ملونة بإمكانها أن تهبط بالجنة إلى الأرض.

بدأ ضجيج المولد السنوي، على شرفه. هذه أيام معجزات، امرأة تُشطر كل ليلة ثم تعود للحياة، رجال يمضغون الزجاج وآخرون ينامون فوق المسامير، نيران تخرج من أفواه أطفال فقراء بلا لعاب يطفئها، وبنادق يستعملها المقامرون موجهين ظهورهم للهدف. دائماً، كان مستيقظاً في الليلة الأخيرة، لكنه هذه المرة، منبوذ، طريد منام من دون أن يدفن في واحدة من مدن الآخرة.

لقد صارت غرفتي ضيقة، رغم أنها كانت دائماً نفس الغرفة. وفكر، ماذا لو غيرت ذلك البيت؟ الآن، تجاوزت قامتي الأمتار الثلاثة. بين

موت وحياة كان جسده يفقد اللحم والجلد، وتتمدد قامته، حتى أنه، وهو يتأمل نفسه في عيني خادمته، رأى جمجمة عارية تمتد منها اللحية الأشد بياضاً في العالم، وقد أصبح، في النهاية، أشبه برجل البئر القديم الذي وُلدت مناماته على يديه.

أريد أن أغير هذا البيت. وجد نفسه يقولها لآخر مرة، لكن أحداً لم ينصت. طالما فكر فيها، قالها من دون أن يتحدث، ليبرز في أحلامه الرجل القادم من هناك، من بيوت السلطة في المدينة الكبيرة البعيدة التي كانوا يخشونه فيها، يفرد أمامه الخرائط الكبيرة ليختار ما يشاء، حتى لو كان مكان بيوت أحياء. يذهب ويعود مرتجفاً، سنحمل رفاتك بحرص، وسنهبك بيتاً واسعاً، فلم يعد بيتك الضيق هذا يليق بك.

كلما استيقظ، يفاجأ باتساع رقعة المقابر، بالولادات التي لا تنتهي لشواهد جديدة لم تكن على خارطة الموت. وتزداد حيرته، غائباً في غابات اختيارات كانت تنتهي به إلى متاهات حيرة غير منتهية.

تَذكَّر مدينة مقابر فقط، بأسقف عالية تتدلى منها الثريات، بنوافذ يدخل منها الهواء لكي لا يختنق الميت، وبأبواب مفرودة القامة يعبرها الميت على قدميه. إنها المرة الأولى التي يرقد فيها جسده في مقبرة مثل تلك. من الجميل أن يطل الميت على العالم في الخارج، أن يتنفس شيئا سوى التراب والوحدة، أن يفتح نافذة ليطل من رقدته. أكثر ما يفتقده الميت هو الفضول، وبهذه المقبرة الفريدة، شعر أنه لم يمت.

أين يمكن أن تقع هذه المدينة؟ إنها لا تشبه أي مدينة عرفها أو عاشها أو حتى مات فيها. لا تطل على بحر ولا يشقها نهر. تبدو مدينة صحراوية. هواؤها جاف، وشوارعها تغص بالسرابات. ربما كانت تشبه مدينة أخرى مات فيها، كانت تغص تلك المرة بالبيوت، لكن البيوت لا أبواب لها. يتطاير الناس من النوافذ عندما يقررون الخروج للتجول أو الذهاب للعمل، ويتسلقون الجدران لكي يعودوا إلى غرفهم. وبالطريقة نفسها يطرقون على بعضهم بعضا.

من يريد الانتحار، لا يقفز من نافذة كما اتفق، بل يقفز من الشارع باتجاه النافذة، ليتحطم داخل البيت. ومن يموت في سريره، يتطاير نعشه في الهواء محمولاً على أكتاف الرجال الأقوياء.

فكر، من جديد، أن يسأل عن قصة مجيئه، تلك التي تشابكت في متاهات جعلت منه بالقوة نفسها شخصاً غير موجود.

هم يقولون إنه جاء هنا قديماً جداً، قبل أن تصبح مدينة، وقبل أن تصبح نقطة صغيرة على خرائط الدولة. جاء ليستريح، في بقعة بين جهة غروب الشمس التي أتى منها وجهة الشروق التي سيحج إليها. خادمته تقول له ذلك، عندما يسألها من أنا، من أين جئت، لماذا أنا هنا؟ تخبره أنه مات، دفن في مكانه، هنا، في هذه النقطة يا سيدنا، بالضبط بين الغروب الذي قدمت من ناحيته والشروق الذي لم تبلغه، ثم علت القبة السوداء، فوق ترابك، حيث مت ووجهك للقِبلة. هل

كنت تتأهب لعبور الماء؟ قالوا أيضاً إنك عبرت الماء في طريقك إلى هنا.

على البعد رأى رجلاً عجوزاً يقف خلف صندوق الدنيا الأسود، والأطفال محنيين تحت ستارته، مختبئين من جلبة الدنيا، من صورها الفقيرة، ليتفرجوا على العالم الذي ربما لن يرونه أبداً.

عرف ببساطة ودون أن يطيل النظر أنه الشيطان. كانت حرب منام غير متخيلة، سيدرك خلالها للأبد كيف أن لهما الملامح نفسها.

شعر بمرارة في فمه وقد تذكر الشيطان فجأة. لا أحد يعلم أنه هزمه ودحره.

ظلت هزيمته البعيدة تلك تمرر حلقه كلما تذكرها. لقد فعلها هنا بالذات، تحت هذه القبة الخريفية، وإلى جوار ذلك السرير.

فكر أنه بحاجة لسيجارة مشبعة بالمخدر، حيث الهواء الأزرق يقرب الصحو للمنام فتحسس جيب جلبابه، حيث ترك علبة سجائره التي تتكفل خادمته بحشوها قبل سنوات، منذ نام آخر مرة، وامتدت يدٌ مرتعشة للعلبة الصفيحية، تشكك أنها يده. جرب أن ينطق، ليتقيأ الكلمات المحتبسة في جوفه، مرتعباً، بينما تعود له الحياة أخيراً، كأنه كان نائماً بدون فمه.

كان يتأمل الكلمات الضائعة بمجرد أن يصحو، كأنها كائن غامض

وشرس يعيش في فمه. يتقيأها فيرى لغط حروف كبيرة على البلاط، متكومة في تل صغير، وتأتي الخادمة لتلمها محاولةً استعادة الحكاية المبعثرة، بينما يضع السيجارة بين فكيه، وينفث دخانه.

عندما يستيقظ، كان يتذكر الحلم ملخصاً وخالياً من التفاصيل، التفاصيل التافهة، لكن الضرورية للغاية. وبعد أن يتكاثف الدخان، تبدأ الوجوه في الانبعاث، وتتشكل من جديد ملامح كل شيء، حتى يهيأ له أنه مع كل نفثة يفقدها كان يتزود بقطعة جديدة من خرق حيواته المنامية.

ووجد نفسه يسأل مجدداً: ماذا يعني الدخان بالنسبة له؟ أي معجزة تنطوي عليها تلك النعوش البيضاء المحشوة بالمخدر؟ ومن أغواه وعلمه؟ فعندما مات لم يكن هناك وجود لذلك المخلوق الغامض.

يسأل نفسه، بضمير الغائب، كأنه يزيح عن نفسه أي تهمة يمكن أن تلتصق بجبينه، لو اعترف أنه أنا.

بهذه الطريقة فقط كان يتأكد أنه عاد للحياة.

لكنه أخيراً نطقها، قذف بها فخرجت ثقيلة والتصق قوامها اللزج بالبلاط، في حرفين كبيرين: **أنا**

# ج

كان قد بدأ يغيب في اليقظة، عندما استدار فجأة، مرعوباً، على كف أليفة وهشة، واحتاج وقتاً ـكما يحدث في كل مرةـ كي يتعرف على وجه المرأة التي شاركته حياته.

لمح في عينيها الدموع المتفق عليها التي كانت تواجهه بها بعد كل مرة يعود فيها سالماً من نومه. رغم ذلك وصله صوتها المتسائل محايداً، "كيف مت هذه المرة؟"

كانت تسأله كلما استيقظ عن طريقة موتة، غير عابئة بحيواته في مدن الآخرة. تعيش في حداد خاص على ميتاته المتتالية، دون أن

تذرف الدمع، ذلك أنها حصلت على عزاءات لا حصر لها بعدد ميتاته.

"ما اسمك"؟ فكر أن يسألها، مثلما يفعل كل مرة كلما عاد، لتعيد نطق الاسم نفسه، الذي لن يتمكن من تلمس حروفه، ولتخبره بالمهنة ذاتها:"نعمة.. عبدة فقيرة إلى الله وهبت نفسها لخدمتك يا سيدنا".

لكنها ليست عبدة ولا فقيرة ولم تهب نفسها لخدمتي، حتى ذلك الوجه الخانع في حضرته كان يتجعد برياح شرسة، تكفلت بشيئين كانا تمديداً لحياته.. حفظ ميتاته كما يتقيأها فمه فور الاستيقاظ، وتحويل العناصر الملهمة في هذه الحيوات الى وقائع. ولسبب ما كانت تلهمها صورة الوجوه الذائبة، الشوارع التي تنتصب فيها الحوائط، الغرف المضاءة في الليل بحيث لا ينام الناس. إنه خيط شراسة في هذه السلالة تمده هذه المرأة لآخره. بدأت بوضع السقف فوق طريقه ذات مرة. كان يكفي أن تقول لرجال الطريقة إنه يريد ذلك، لقد أمر بذلك، وقد كلفني أن أخبركم بذلك، ما السماء؟ مطر يوحل الطرقات، شمس حارقة في النهارات، حتى طيور مدينتنا ستحلق تحت سقوفنا، سقوفنا فقط، لن تهرب لسماوات أخرى، ولن تعلو فوق قدرتنا على البصر. نُصبت الأعمدة عند مداخل الطريق، ثم انسدلت السقوف كالأثواب، وصرنا في بيتنا. استطعنا أن نقول المدينة بيتنا، دون أن يكون ذلك فحسب عبارة بذخة بماء الذهب تنطوي على مبررات تقويضها. البيت المسقوف بحاجة إلى باب. صار للطريق أبواب. صارت أحلامه مهنتها.

وبدأت صورتها الدنيوية تزاحم صور آخرته، بحيث أنه كلما مات أكثر أمعنت هي في الحياة العميقة، وللأسف، الحياة التي ليست أكثر من وجه حالك للموت. لكنه كان يقوض كل شيء عندما يستيقظ في المرة التالية، معيداً إياها للعدم، فقط لكى تؤجر يوماً آخر من الدنيا.

حتى هذ المرأة نسي كيف صارت هنا. لم تكن مجبرة أن تصدق أنه كان يموت في كل هذه المدن، كانت تتعامل مع الأمر كقدر لا يحتاج للتفكير به أصلاً. هو أيضاً لم يكن مضطراً ليصدق، ذلك أنه لم يكن يحتاج للتصديق.. فكلما حلم بمدينة كان يستيقظ ليكتشف أنه يعيش فيها. يعرف ذلك عندما يمد رأسه خارج الشبابيك، ويكتشف أنه يطل على هواء لم يتنسمه من قبل، فيخرج إلى مدينة جديدة، يخدش هواءها كأنه يولد.

يتجول في المدن التي يحلم بها، يبحث عن مهن صغيرة ليأكل، ثم يموت متوجاً. يستغرق ذلك أوقاتاً متراوحة، أياماً أو شهوراً أو سنوات، بينما جسده، في نفس اللحظة، مسجى في سريره.

كلما شاخت، كان يشعر أنها ارتدت لطفولتها.

كانت تضطر لإطعامه وهو نائم كي لا يموت جوعاً في سنوات أحلامه، وتضع له السجائر في فمه، تشعلها له وتراقبه وهو يلتهمها بنهم، كأن الدخان يشحذ صور مناماته. لا تعرف أن طعامه هنا لا يعني شيئاً لجوعه هناك.. مثلما لم يكن موته هنا يتعارض وحياته هناك.

لكنه أدرك منذ سنوات طويلة، أن واقعه، ما يمكن أن يسميه الفانوِن واقعاً، ينهض في جميع الأماكن خارج هذه المقبرة، بمعزلٍ عن الأسر المحكم لقداسته، وأنه لو كان ثمة حلم في حياته، فهو مدينته وضريحه وخادمته، وذلك القطار.

عندما لم يرد، تركته بهدوء واستدارت عائدة للا مبالاتها التي تعود عليها.

.. ورآها تتحرك، كأنها تتعثر في ملاءة، مُبقيةً على مسافة آمنة من الحوائط، كأنها تتجنب أن تلامس ذكراها. هو لا يعرف، وبالأحرى لا يتذكر، أي ألم تمثله لها تلك الجدران، رغم أنه يتذكر بوضوح مدينة حوائط لا نهائية، مات فيها مبكراً جداً، وظل غير قادر على محو ذكراها، مدينة لا تعرفها الخرائط التي كان يعود إليها بعد كل يقظة محاولاً أن يعرف أين يمكن أن يكون عاش ومات آخر مرة.

حدثها عنها كثيراً، كانت -كما كان يقول مأخوذاً- أقرب لغرفة، شاسعة. أينما سار الشخص فيها يصطدم بالحوائط، الحوائط التي يمكن للواحد أن يجدها في أي من بيوتكم هذه وليس في فضاء مدينة. معلقة عليها صور السكان في إطاراتها، صور الشهداء والموتى المتربة بشرائط الحداد السوداء المائلة التي لا أفهمها، آيات قرآنية، وأيقونات قديسين، ولوحات، بألوان الطلاء الكثيرة، ليس سوى ملايين الحوائط التي يمتلكها الجميع بالتساوي. بالمقابل، تخلو البيوت من أي ذكرى

معلقة. بل إن حوائطها ليست سوى جدران جرداء، وعملية، من تلك التي يمكن أن نراها في مدينتنا. وحيث يمكن لأي عابر أن يفتح باب أي بيت، ويدير ظهره للجالسين ببساطة كي يدفق نهر بوله الساخن أسفل الجدار. إذا أردت أن تعرف شكل جدران المدينة فادخل البيوت، وإن أردت بيوتها، فليس عليك سوى أن تتجول في شوارعها لترى أسرار العاديين على الحوائط. في كل بيت غرفة تستخدم كمقبرة، وقد دفن في واحدة من تلك الغرف، محصناً بالجدران، ثم محصناً بالحوائط في الخارج، وهي الميتة التي ظلت الأكثر مثالية له حتى الآن.

استمر عهد الحوائط فيما كان هو يصارع الظلال في مدينة أخرى غامضة التهمت من حياته سنوات، وانتهت بفقدانه لظله للأبد، لتضاف إليه معجزة جديدة لم يقصدها.

واندهش، وهو يطل على جسدها البعيد في عمق الصالة، جسد الشبح الذي يخيفه، عندما رأى ظلاً غريباً يعكسه جسدها على الحوائط، ظل رجل.

إنها خيانة، تقدم عليها هي بالذات. كم من الخيانات تمارسها في مناماتي؟ يحاول أن يتأمل الظل من جديد، ولكنه يقع في متاهة من التشوش. يعرف ذلك الظل، يستطيع تمثل الجسد الذي كان يُلقي به على الأرض ويعكسه على الحوائط، بالضوء المتقطع كحدائق برق في الداخل.

إنه ابن لظل امرأة، استبقاه بعد أن ابتعدوا بالجسد. قتلوا المرأة، جاءوا وانتزعوها من هنا وقتلوها هناك، وأخذوا الطفل أيضاً، لكن امرأة من تجاعيد صرخت "لا"، دعوا الطفل. استطاع أن ينقذ ظلها، تركه يتجول في الداخل، عابراً الجدران التي تصلح لتجول الأشباح في مسامها. معجزة ليس من الممكن دحضها، سجادة طيفية داكنة يرتمي فوقها المجاذيب، ويدعون لصاحبتها، وعلى من تركوها للتراب.

عندما ساقتها قدماها هنا كانت طفلة. لا، كانت أكبر بقليل من طفلة، بعينين حجريتين. كانت معها صرة، من خيش، فيها تماثيل، من طين محترق، عندما فردتها على الأرض. بدا له أنها ستتكلم. حيوانات وطيور، رجال ونساء وأطفال، مدينة كاملة. كان معها رجل، أب محزون وشرس. أتى بها وتضرع. دعها هنا، لتخدمك. لتكن خادمة خادمتك التي لا يمكن لأحد أن يحل في مكانها تحت قدميك، ستكبر معك، ستعيش طويلاً، ربما مائة عام، هنا، بعيداً عن البيت، عن لعنات الجيران، بأرواحها الشيطانية تلك، بمدينتها الكاملة من الطين. تركها الرجل وذهب، تركها ولم يعد أبداً لزيارتها، وهي، بينما تقترب أكثر وتتجرأ على تحريك الستائر التي تحجب عورته، خلعت الفستان، بالورود الكبيرة، حتى أنه شعر أنها تزيح حديقة عن جسدها. لا ترتدي شيئاً تحته. لا وجود في المدينة لمن تفعل ذلك. رأى النهدين الدقيقين، بازغين من عظام الصدر، البارزة كهيكل سفينة. ورأى الشعيرات الدقيقة تستر العانة.

يراها إلى الآن، العارية نفسها كأنها أمامه. لم ترتد شيئاً منذ ذلك الزمن السحيق، ولم يكبر جسدها، ولم تتضاعف الشعيرات. لكن مدينة يديها تضخمت، امتلأت بكل شيء، وصارت لها مقابر، تستقبل كل يوم عدداً من خلقها، حتى تلك المخلوقات الصماء تموت، تدفن تحت التراب.

الرجل المحزون الذي غادر قبل سنوات، صار من المتعذر إحصاءها الآن بدقة، لم يكن يعرف أن ما تمناه من عزاء، من حماية، لن يجده هنا. خرج منها طفلٌ إلى العالم، وسيعبر عندما يتمكن من المشي طريق التراب، تاركاً آثار خطوات قدمين دقيقتين، قدمي ملاك سحيق تحت سماء ضيقة، ليصير، كما سيقول الجميع، ابن الرجل المقدس.

من جديد نظر إلى الخادمة المنسية. فكر أنها لم تعد تعبأ بوجوده، ليس لأنها تكرهه، بل لأنها أكثر شيخوخة منه.. لكنها على العكس منه تماماً، كانت بلا أحلام على الإطلاق. لم تر طيلة حياتها صورة واحدة في منام، ولم يؤرقها ذلك أبداً.

هي ارتدَّت من التراب لتعيش معه. وعاد يشعر أن الظلال تلاحقه.

في مدينة الظلال كان جسداً وحيداً وسط آلاف الظلال. وعندما نهض وجد الضريح يتكدس بها، "الظلال مخلوقات يائسة، ولكنها لابد أن تقتل، ودماؤها، ظلال دماء".

هي الآن تتمشى هنا ملتصقة بظل رجل. وفي بيت ما، يعيش رجلٌ ملتصقاً بظلها. تخونه مرتين. هناك دائماً هذه المرأة، هناك غضبه، وعجزه عن أن يأمر بعودتها لشوارع التراب.

ماذا يمكن أن يفعل الظل؟ لو ضاجعها، سيكون هناك ظل قضيب في فرجها، وستنجب ظلاً. هل أنجبت ظلالاً؟ عليها أن تنجب طفلةً من الدم واللحم لتخلفها في رعايته. عليه أن يصدق. عندما لا يموت الناس، لا يعود بوسعهم سوى التصديق.

فكر أن يطلب منها قراءة حكاية تقتل أرقه.

كانت تدخل، مصطحبة الكتاب الكبير، الذي ورثته عن جدات جداتها، حتى إذا رغب في النوم فجأة، تقرأ له لينسحب إلى الموت بهدوء. قبل أن يعرف بأمر هذا الكتاب، كان يدخل كل مدينة جديدة بوعورة، يضيق صدره، يبكي كطفل، كان كتاباً محرماً في الأنحاء، من فعل ذلك؟ الرجال باللحى، لماذا؟ لأن ذوي اللحى يقتلون من يعرفون أنه يملك نسخة منه، يحرقون نسخه، لكن الخادمة كانت تملك نسخة منه. ذات يوم أخبرته بطرف من مدينة نحاس، بينما كان هو يحاول وصف مدينة من معدن أحمر دخلها في حلمه.

معجزة، لقد قرأت له مدينة أحلامه، لكنه لم يكن قرأ الكتاب.

كان قال، طفت حول مدينة النحاس لعلي أطلع على أثر باب،

وأكملت له الخادمة حياة كاملة عاد منها ضريراً.

غير أنه لحظ استدارة بطنها، استدارة دخول اللحم في اللحم، وعرف لماذا تتحاشاه، هنا ترك الجسد المقتلع شيئاً في هذه المرأة.

أرقه ذلك فأخرج سيجارة جديدة من علبته الصفيحية، وأشعلها متوتراً. واستحوذت عليه فجأة العلبة الصدئة، برسم النسر المنقض على مغلفها، والذي صار شبح طائر، هزيل في تحلله.

وارتعد عندما انهمرت دقات كأنها تعلن عن موته الأخير.

نظر للكائنات التي تعوي على الحوائط. هو اقترحها، عندما عاد من حلم بإيقاع نبضات آلية رتيبة. رسم الشيء. وأتت به. ورآه. وابتسم. ستكون حياتكم صمتاً أبدياً. كان بائع الساعات الوحيد في مدينة، اختار له الله في منامه أن يكون ضيف مدينة بلا زمن، يعيش في دكان صغير يكتظ بالساعات، وفي المساء يغلق أبوابه وينام بداخله. لم يرني أحد أبداً أتمشى في الشوارع كبقية الناس، من مكاني كانت تنبع الصيحات الآلية الدقيقة لآلاف العقارب، كادت تصم آذانهم. أحد في المدينة لم يكن عرف بأمر ما يبيع أو حتى سمع به من قبل، إذ لم تكن سوى مواقيت الله، نوره وعماره، ليله الذي يلج النهار ونهاره الذي يلج الليل. وحيث المواقيت تولد وتحتضر بشروق الشمس وغروبها. لماذا بعثني الله إليهم؟ ليفرقهم بعد أن كانوا متلاصقين؟ كانوا

يلتقون على الدوام. من يريد شخصاً كان يستطيع العثور عليه، إن لم يكن في بيته، ففي أي من شوارع المدينة القليلة والضيقة.

بدافع الفضول لا غير، بدأوا يتغلبون على خوفهم، يلقون عليه السلام المرتجف، ثم تجوس عيونهم في بيت السحر ليعرفوا أي شياطين يبيع. وكان كل منهم يخرج بساعة معلقة على صدره بقيد، دون أن يعرف شيئاً عن الرجل نفسه. ما هي إلا أيام حتى كانت المدينة تغرق في الزمن الجديد، يتفق الناس على مواعيدهم بالنظر في حدقاتها ذات العقارب والأرقام الغريبة. واختفيت، أغلقت الدكان ومت تحت سقفه، فيما كانت كل ساعة مضبوطة على توقيت يختلف عن الأخرى. يحدد الشخص مواقيته بالنظر في ساعته، فيستجيب الآخر بساعته، ولم يسأل أحد الآخر أبداً، كم الساعة الآن؟ اكتفى كل شخص بميقاته الذي حددتُه له وهكذا عرف الناس الوحدة، وسوء الظن، وإتلاف المواعيد،.. وحتى إن فعلوا.. كانوا يتشاجرون ويتخاصمون لأن كل شخص كان متأكداً من أن الخطأ ليس عنده. عاش كل شخص في توقيته الخاص، بدأوا في زمنه الذي لا يشبه أزمنة الآخرين. صار من الممكن أن يقنع شخص نفسه بأنه في الليل رغم أن الشمس تتوسط السماء.. وأن يعتقد آخر أنه يرى أضواء النهار بينما تغرق الدنيا في الحلكة.

حتى عندما فتحوا بابه ليطالعوا موته، اعتبر كل منهم أنه مات في توقيت مختلف، مات في كل اللحظات بين الليل والنهار. تشاجروا

من جديد، وفي قتالهم سقطت كل الساعات من صدورهم، وتوقفت فجأة عن العمل. واكتشفوا لأول مرة أنهم عاشوا كثيراً دون أن يسمعوا أنفسهم.. وأن صوت الساعات كان أعلى من كل ما يقولون فلم يفهم أحد ما يقوله الآخر. وعندما جاء النهار التالي كانت كل ساعات البلدة قد ضبطت على توقيت واحد، لكني ظللت الرجل الذي مات في كل الأوقات.

الآن، تزدهر ساعة في يدها، وأخريات يقتلن صمت الجدران.

كان يستغرب كلما نهض، كلما عاد من موتٍ استعداداً لموتٍ آخر، عندما تبدأ في التحدث عما وقع لولاياه أثناء غيابه. بمهارة صائد،كان يلتقط من لغط كلامها التائه شيئاً واحداً، هو الموت.

فور استيقاظه، كان يسأل عن أسماء من ماتوا أثناء غيابه، ليقدم فيهم واجب العزاء خلال أحلامهم.. رغم أن بعضهم يكون مر على موته سنوات ونسي حتى أقاربه حقيقة موته.

كان يقضي أيام الصحو بطولها في مواساة ناس لم تعد تعوزهم هذه المشاعر، وبمجرد أن يعود من مناماتهم كان يتقيأ آلاف أكواب القهوة المرة التي اضطر لقبولها في سرادقات النوم.

يعود باحثاً عن ميتة جديدة، غير مصدق أن هناك من يموت في هذه المدينة. ويستدعي ذكرى وفاته في مدينة ما.. أو أكثر من ذكرى

متزامنة. كانت له ست ميتات وقعت في اليوم نفسه.. وأحياناً كان يغيب في عمليات إحصائية عقيمة وهو يصنف ميتاته حسب السنوات التي وقعت فيها أولاً، ثم الشهور، فالتواريخ، وأسماء الأيام، ومواقيت الوفاة، وأسبابها. ورغم أنه فقد ذاكرته تقريباً، إلا أنه لم ينس قط يوماً مات فيه. كان يشعر في تيقظاته المتعبة أنه تراب متيبس داخل جلباب، ويحسد النعوش المتجهة لمقابر تخص أبناء ذلك التراب، من ولدوا فيه وماتوا عليه، متحسراً على ميتاته اللقيطة.

اليوم، لم يطلب أسماء لموتى. ظلت الورقة التي كتبت فيها خادمته أسماء الراحلين في منامه الأخير مدسوسة في صدرها، كما تعودت أن تفعل، رغم ما يتركه لها ذلك من خوف مجهول، كأنها تتجول بصحبة الموتى.

مد يداً أغلقت الشباك فاختفى العالم.

.. وطلب أخيراً ورقة، امتدت بها يد الفراغ إليه، حيث كتب، بحروف كبيرة، سطرين مقتضبين، ثم نادى حارسه:

ـ سلم هذه القصاصة لابني عند حلول الفجر.

# الطريـق

.. فقال غِب عن الطريق تصل إليه.

# 1

لاح أول الطريق، في انحرافته الفجائية عن آخر الحدود الممهدة.

رغم ذلك بدت المسافة أشد قِصراً بكثير، حتى هيئ لي أنني أقطع بعيني حفنة الكيلومترات، لأرى ضريحه البعيد.

كانت أنفاس الرجل المقدس تعلو مع كل خطوة، بينما أقاوم رغبة لا تُحد في النظر خلفي. أتقدم حثيثاً، مودعاً مع كل خطوة مشهداً لن أراه بعد الآن. أتلفت يميناً ويساراً، ربما لأتأكد أنه نفس الطريق الذي ظللت أقطعه طيلة عشرين عاماً.

كنت أمتطي مسخي الذي صار الآن في حجم حصان. أفعلها لأول مرة منذ سنوات. الآن أصبح هيكلاً عظمياً، ذاب لحمه وسال جلده الليلي

وشعرت وأنا أمتطيه بألم هائل، ألم الرقاد على العظام. لم أتوقع أن تحتملني عظامه، تخيلتها ستتحطم تحت مؤخرتي، لكنها كانت أقوى مما تصورت، ولم يكن المسخ الأخرس بحاجةٍ بحاجةٍ لأن أوجهه في الطريق، فقد تحرك من نفسه مطرقاً ومطيعاً لأمرٍ سري، كأنه كان يعرف إلى أين أنا ذاهب. لقد أصبح، في شيخوخته هذه، زاهداً، فلم يعد التراب ينادي أمعاءه.

يبدو الطريق، لمن يراه من فوق قمة جبل الكحل التي كنت أتسلقها في طفولتي، مثل ثعبان نحيل غزير التعرجات، برأسين كبيرين يمسكان بطرفيه، واحدة تؤلفها كتلة مقابر الصدقة التي لم تكن تكف عن التضخم مؤكدةً أي فقراء نحن، والثانية يرسمها الضريح، بظله الهائل على الأرض، والذي بقي أكثر ضخامة من كل محاولات مقابر العموميين لمناطحته، كأن حرباً خفية كانت تدور بين الموتين اللذين يحيا الطريق بينهما، وكان لابد دائماً أن ينتصر فيها موت أبي.

ربما لذلك السبب كان يحلو للبعض أن يسميه طريق الموتى، مثلما يسميه آخرون طريق المعجزات، أما أنا فكنت أفضل تسمية "طريق النساء" رغم أنها كانت تطلق عليه في الغالب من أصحاب اللحى الذين لا يُفوِّتون فرصة للتقليل من شأنه.

في كل تعريجة، كان الطريق يقدم واحدةً من تلك النساء الغامضات اللائي يقال إنه بذرهن لتذكير الناس بقوته ولاختبار تقواهم. كانت ثمة مقرئة عمياء في ثياب رجل، وصوت امرأة مختبئة ينبع من جميع الأرجاء.. كانت هناك امرأة جبل الكحل ذات العين الوحيدة الكبيرة والمختفية في

مكان ما من متاهات جبلها المعقدة منذ تآمرت عليها نساء الجيل الأول في مدينتنا، وتلك العرافة الزرقاء التي أرعبت أحلامي لسنوات، في قصةٍ طويلة لا تنتهي، أيضاً كانت هناك دائماً هذه الإسكافية الغامضة واليائسة، التي ترتق مجاناً نعال الذاهبين لزيارته. ماتزال قائدة جيش الورق تعيش، حبيسة صندوق، منذ أنقذت بلدتنا في آخر حرب بعد أن هرب الرجال، والعاهرة التي كان الغرباء يستجيبون لها فيخرجون بشعور بيضاء وجلود متهدلة ليذوبو بعد أمتار.

كنت أرى بعضهن، لكن دون أن أستجيب مرة للرد. كم من المرات زجرتني المقرئة الخشنة وهي تمد يدها بمصحف صغير، اقرأ ولو آية لأمك التي تتوهم وجودها في مقبرتي.. كم مرة طرحت العرافة شعرها منادية، تعال أقرأ لك طالعك يابن سيدنا، وكم مرة طلبت مني الإسكافية أن أخلع نعلي لترتقهما؟

يقول أصحاب اللحى إنهن النساء اللائي ضاجعهن عندما جاء وجعلهن حارسات لطريقه ليظل الرجل الوحيد في الطريق وليُهين الرجال. لكن نعمة، التي حكت لي حكاياتهن جميعاً بطريقتها المتآمرة، قالت إن أمي التي لم تمت، تختبئ عند واحدة منهن، بأمره، بعيداً عن الأذى. بدلاً من أن يكون كلام نعمة خيط أمل مفاجئ، أصابني بانقباض مثل حبل غليظ يداعب عنقي. كنت قد وطنت نفسي على أن مكان أمي هو مقبرة طفولتي، فقد تعلقت بتلك المقبرة حتى صارت بيتي في العالم الآخر.

لم تكن مقابر "الصدقة" أكثر من حفنة مكعبات لها لون الطين الكالح،

لا وجود لأسماء على شواهدها. لقد نشأَت من أجل المجهولين الذين يجب أن يظلوا كذلك. وخلافاً لتعاليم الإسلام، كان الرجال يُدفَنون مع النساء، لكن الفقراء لم يكونوا ليلتفتوا لهذا الترف عندما تباغتهم لحظات الموت التي يكون الذنب الأكبر فيها أن تفوح رائحة الميت قبل أن يغادر سريره. في واحدة من هذه البيوت الهشة ترقد عظام أمي، مختلطةً بنساء ورجال أطفال، وبلا عزاء حتى.

لهذا السبب كان الأهالي الحريصون على زيارة موتاهم يختارون المقبرة التي تروق لهم، متوهمين أن فقيدهم يرقد بين جدرانها. أنا أيضاً لم أعرف أبداً في أي مقبرة دُفِنت أمي، لكنني لم أطق فكرة أن أتنقل من مقبرة لأخرى، فقد كان ذلك يَشعرني أن جسدها ممزق. في طفولتي اخترت واحدة، مرة واحدة وللأبد، واعتبرتها المكان الذي تنام فيه المرأة، وبمرور السنوات، صدقت أن أمي لابد توجد فيها فعلاً. عندما بدأت أحصل على المال من صندوق أبي اشتريتها ودفعت ثمنها، وأشعرني ذلك يومها أنني امتلكت أخيراً وهم أمي.

بدأت أعبر المسوخ المقدسة، التي تتجول بأناة بامتداد الطريق لاصقة خطومها بالأرض.. تتمشى بوداعة وسكينة لتتغذى –فقط– على التراب الناعم.

لكن الحيوانات المظلمة ما لبثت أن تطيرت عندما رأت الهيكل العظمي لشبيهها العملاق الزاهد الذي أمتطيه. بدأت تلاحقنا بنباح صاخب لم يلتفت له.

طالما تفاديت زيارة أبي في أيام المولد الثقيلة، وخاصةً في الليلة الكبيرة المقبضة بزحامها وروائحها الثقيلة المتنافرة ولغط أصواتها الذي لا يُطاق. كان يوماً للحزن النقي، بدا لي على الدوام عرساً غامضاً للبكاء، شحاذون ومجاذيب وتائهون في الملكوت، قطعان من الجياع تهُبُّ كأن الأرض انشقت عنها، بعيون رحلت قبل أصحابها وانطفأت في النور الكامل حيث لا رجاء في رؤية ما يراه الناس، وكان الهواء نفسه يعتمر بالمسوخ، أشباح دقيقة بلا أشكال محددة تتقافز في مدى الرؤية مغرقةً الواقع فيما يخبئه من أحلام. يقولون إن الأموات جميعاً يستيقظون في هذا اليوم الأخير، يتحركون متجسدين ليأخذوا بأيدي الراحلين الجدد، فكيف يموت هو في هذا اليوم بالذات؟ هل ليموت العالم؟

بدأ كرنفال الاحتفالات التي ستشتعل مع غروب الشمس، وكان بإمكاني أن ألمح كل أصناف الغرباء والغريبين الذين أتوا لانتزاع القروش القليلة التي ادخرها الفقراء من أجل ذلك اليوم.

رأيت الرجل العجوز حاملاً الحوض الزجاجي الضخم الذي تسبح فيه ابنته، وسرب المسترجلات اللائي يغوين الرجال بعروض خليعة، تنتهي بأَسر قليلي الحذر، يرون عند نزع السراويل في خيامهن أضخم أعضاء ذكرية يمكن تخيلها، ويستسلمون مجبرين للتخلي عن رجولتهم، وفي النهاية يخرجون بمؤخرات دامية، تظل تتضخم حتى تنفجر. كذلك رأيت الرجل الذي ينوم الناس مغناطيسياً، تظل عيونهم مفتوحة لكن شاردة وبلا نظرة، ثم يبدأون في سرد تفاصيل دقيقة عن حيواتهم لا يجب أن تُحكى. دائماً ما تساءلت، كيف ظل الناس في بلدتنا يستسلمون لكل أنواع

الخداع، الواضحة كالشمس والمكررة ككل يوم، مرة بعد أخرى، وجيلاً بعد جيل، كأنهم يدمنون نوعاً غامضاً من التمثيل بأنفسهم؟ حذرتني جدتي مراراً من كل هذه الشرور، رغم تأكيد رجال أبي أن أحداً لا يمكن أن يصيبني بأذى، وظل التحذير لذلك على الدوام مناقضاً لنفسه.

تمنيتُ ألا ينتهي الطريق، وندمتُ لأول مرة لأنني تمنيت إنهاء المخطوط.. لكن أملاً أخيراً لاح عندما اقتربت طائرات المقابر الورقية.. أن أعثر على أمي في الطريق.

كرهتُ الوصول، وتمنيت أن تنقذني المرأة التي لفظتني، لمرةٍ واحدة، وفي اللحظة نفسها، بالتناقض الذي لا سبيل لدحره.. أدركتُ أنني لا بد أن أصل، ليس لأقابل أبي.. لكن لأقتل نعمة، قبل أن أصيرَ أباً.

# 2

في لحظة، تمزق المشهد بين أربعة ألوان، فعرفت أنني اقتربت من مقبرة أمي.

مِزقٌ تشف عما خلفها.. التصقت بعيني فجأة، بملمس مزجج غير أنه هشٌ. أحمر وأصفر وأزرق وأخضر. منحتني قناعاً جديداً بغتة، لم أكن مهيئاً للاختفاء خلفه أو النظر عبره الآن.

أكدت جميع الحكايات التي سمعتها عن أمي حقيقةً واحدة، أنني لم أعرف شيئاً عنها. في طفولتي كانت جدتي تأتي بي للمقابر، وترفع عينيها للطائرات الورقية في السماء، ثم تمسح دموعها بسرعة. كانت هناك نفس المرأة العمياء التي لا تموت، يقول لها الناس "يا مولانا"، تقرأ القرآن

بصوت خشن، وترتدي ملابس مقرئي القرآن الذكور الأليفة.

أزحت الطائرة الورقية برفق عن وجهي. غبت أتأملها للحظات، بينما تصلني همهمة الأطفال وارتباكهم وهم ينظرون نحوي بخوف.

يتكدس الأطفال هنا. يتفرقون على الأحواش.. يلعبون الكرة، ويمدون طائرات ورقية تتشابك في سماء المدينة، يركضون في كل اتجاه، ومنهم من يستذكر دروسه. لا يزعجهم الموت. ليسوا مضطرين للتوضؤ بعد لتفادي انتقام المسوخ. لا يضطربون وهم يقفزون فوق ظهورها ويضربونها بخبطات أكفهم كي تتحرك بهم.. وتظل المخلوقات تطلق صرخات ممطوطة، تبدأ كنواح رفيع مخنث وتنتهي بعواء ذئبي ممطوط مُهدِّد يهز سكون المدينة، ويتجول بين جدران البيوت.. ليتدخل في لمح البصر أشخاصٌ أكبر سناً، يزيحونهم بعنف ثم يستغفرون الله بأصوات عالية.

النساء أيضاً يقضين النهارات بين مقابر الصدقة وحول الضريح.. يأتين بفتياتهن البالغات، يسمحن لهن بوضع المساحيق، ربما لمح راغبُ زواج واحدة هنا أو هناك، ربما قرر شخص ما طرق باب البيت هذا أو ذاك. هذا هو الهواء الوحيد المتاح لهن.. أما شوارع المدينة نفسها، فلم يعد من المسموح فيها رؤية ظِل امرأة.

الآن، أرى هؤلاء الفقيرات أكثر جمالاً بكثير، وللمرة الأولى، ربما، لم تزعجني الفساتين المبهرجة بالألوان الصاخبة المتنافرة والورود الكبيرة، ولا المساحيق الكئيبة المبالغ فيها فوق وجوههن السمراء. كان يكفي أن ترفع واحدة ذراعها لأرى الفتق عند الإبط، تتسلل منه الشعيرات اللدنة

المعروقة كأنها تطل من فرج، ببقايا الخيوط الذائبة التي حاولَت مرةً بعد أخرى رتقه دون جدوى، لقد كانت هذه العباءات البالية أفضل ما تملكه فتياتنا ليراه الغرباء.

أما الأمهات، فقد كانت نظرة واحدة لوجوههن كافيةً لأي شخص لكي يعرف أنهن امرأة واحدة.

هنا يتضاعف صدى صوت الغناء الذي تعرفه المدينة منذ سنوات، غناء امرأة مختبئة ولا ينبغي أن تظهر. تقول نعمة، التي أفسدت ما تبقى من يقيني، إن أمي قد تكون هذه المرأة، "فقد بدأ ظهورها في اليوم التالي لاختفاء أمك، ولها رنين حنجرتها التي ما تزال حية".

اليوم كان غناء المرأة المجهولة عالياً، وكن يرددن معها الأغنيات التي أصبح كل طفل في مدينتنا يحفظها عن ظهر قلب. أغنيات بهجة داكنة في هواء المقابر، تتضاءل أمامها همهمات الآيات التي ينتحي البعض لقراءتها. كثيراً ما شعرت أننا في مدينة مثالية للأموات، ولولا هذا الطريق بالذات، حتى لو أسماه البعض طريق الموت، لفقدت مدينتنا آخر أمل في الحياة.

بدأ الصبية يتهامسون، يدفع كل منهم الآخر للمبادرة بالتوجه نحوي، للاعتذار، لمحاولة استرداد المخلوق الهش. يبدو أن النقاش الذي بدأ هامساً لم يحسم. هؤلاء أصغر من أن يعرفوا الاتفاق، فقط عندما يكبرون، سيضطرون للانصياع له.

أخذ صوتهم يعلو، وبعد لحظات نسيوا وجودي، وبدأت الأيادي

تمتد، اشتبكت حانقة، ليتمرغوا جميعاً في التراب صانعين عاصفةً حوَّلت أجسادهم أمام عيني لأشباح ربيعية.

ما إن أزحت العمى الملون عن عيني حتى شعرت بأذني ترتجان، كأن الغناء القاتل ينبع من مكان ما بداخلهما. كان غناء المرأة المجهولة يترنح داخل جسدي بكل القوة التي يملكها تخبط شخص يحتضر. أغلقت أذني لكنه ازداد، وعرفت، في لحظة الجنون، أن المرأة حية، وأنها، الآن بالذات، تمارس حياةً مضاعفةً بداخلي.

# 3

**نعم،**

لا تزال المرأة التي تغني حيَّةً ترزق.. وهذا الصوت العذب القادم من حنجرتها ليغمر المدينة ليس وهماً أو سحراً ينتمي لشبح امرأة ميتة. إنه الصوت القادم من جميع أركان العالم بالتساوي، فلم نستطع أبداً –ولو بالتخمين– الاتفاق على مكان بعينه ينبعث من بين جدرانه صوتُ المرأة التي تغنى.

كان موزعاً بالعدل على آذان جميع أهالي المدينة، نابعاً من كافة الأماكن في نفس الوقت، من أعماق ظلمات المقابر العمومية، من جوف الضريح، من غرف البيوت، وبنفس القوة، من السماء.

في طفولتي أخبرتني جدتي عنها، عندما سألتها كما يسأل جميع الأطفال عن أشباح الطريق. حكت أشياء كثيرة ليس من بينها أنها أمي. اخترعت حكاية كاذبة مثلما تفعل كل الجدات، قالت إنها تعيش في أحد بيوت المدينة القديمة، المطمورة تحت شوارعنا. تحيا وحيدة.. لا تجد شيئاً تتسلى به سوى الغناء بلا توقف، ليملأ صوتها هواء المدينة ليل نهار.. آتياً من البقعة المجهولة التي اختارتها مكاناً لإقامتها في الخفاء.. والتي لم يستطع أحد أبداً تحديد موقعها أو الوقوف على وجهتها.

حسب حكاية جدتي، (بينما يعلو صدرها ويهبط)، فقد كانت قبيحة جداً، غير أن صوتها كان على العكس تماماً من هيئتها المفزعة.. عذباً ورائقاً كمياه نهر صافية. أخبرها المقربون كنوع من المواساة بأنها تملك صوتاً استثنائياً.. أشادوا كثيراً به وامتدحوا جماله، فتعودت –كلما أطلت من شبَّاكها– أن تغني بصوت مرتفعٍ كي يتناسى المارّوُن شكل وجهها، ولتُثبت للعشاق الذين أداروا جميعاً ظهورهم لها أنها تملك ما لا تملكه أنثى سواها.

ثم وقعت المفاجأة، فيوماً بعد آخر كان وجهها يفقد شيئاً من قبحه، شيئاً فشيئاً متحولاً إلى وجه آخر لم ينتم ذات يومٍ لها. كما راح جسدها –النحيف الخشبي الهش– يزداد نُضجاً وتتجسدً فيه الاستدارات.

– بدا الأمر كما لو أن المرأة التي تُغنِّي تولد من جديد بفضل حنجرتها التي راحت تردُّ إليها قدراً من اعتبارها المفقود وكبريائها المُهان. مع كل أغنيةٍ تُطلقها على آذان الناس كانت تفصيلةٌ جديدةٌ فيها تتحوَّل، وماهي

إلا أيام حتى صار العشاق المعذبون يصطفون في طوابير أسفل شبَّاكها، يقذفون إليها –مع القبلات– بالورود. تنهمر دموعهم الحارقة، منتظرين منها نظرة عطف أو ابتسامة –حتى ولو غير مقصودة– أو تلويحة من يدها. كانت تستقبل كل ذلك بسعادة داخلية لم يترجمها وجهها أبداً إلى تعبيرٍ يشي بالفرحة. أيضاً، لم تكن تريًد أن تتخذ قراراً حاسماً حيال أي رجلٍ، لأنها كانت تعرف أن الوقت لم يحن.. وأن جمالها المتزايد لم يصل بعد إلى منتهاه.. فلا تزال تزداد جمالاً في كل لحظة، وتتضاعف أعداد راغبيها مع كل تلويحة.

وتتنهد جدتي من جديد: كانت المرأة التي تغني مشغولةً في تلك الأيام بتوجيه كل طاقة الحب التي تملكها لنفسها أولاً.. لأنها قبل ذلك لم تكن تصالحت –ولو للحظة– مع ذاتها.

في غمرة نشوتها تألق صوتُها أكثر فأكثر، ازداد حلاوةً وقوة حتى بدأ يعبر حدود المدينة مغرداً في المدن والبلدات المجاورة.. وبات الغرباء يأتون زحفاً لطلب ودها وهي ترفض، بينما تزداد فتنة، ويزداد راغبوها جنوناً.

لم يكن انديا‌ح هدير صوتها يتوقف، فحتى أثناء نومها كانت الأغنيات تنطلق بحرِّية، مدفوعةً بقوةٍ ذاتية، من حنجرتها المستيقظة على الدوام لتتجول بين جدران المدينة الّتي دوَّخها النغم.

– ذات يوم، جاءها حارس أبيك الذي يشبه الموت برسالة. قال لها، الآن اكتمل جمالك ولن تصيري أجمل مما أنت عليه.. صرتِ أجمل امرأة على وجه البسيطة، وصاحبة أجمل صوتٍ في أرجاء الدنيا.. وصار عليكِ

أن تختاري: إما أن تحتفظي بجمالك الباهر ويختفي صوتك للأبد، وإما أن تحتفظي بصوتك الذي دوَّخ المدينة كلها وتعودي إلى هيئتك الأولى. أنتِ الآن مُخيَّرة، والاختيار علامة قوة وآية تحقق.. لذا فعليك أن تقرري في التو".

أصيبت برعب، وسالت منها دموعُ تألُّم لم تجربها من قبل حتى في أشد لحظات حياتها تعاسة. عندما بدأت تتمالكُ نفسها أمام الرسول الذي بقي صامتاً في انتظار جوابها، طلبت منه أن يمهلها للتفكير قبل الرد. وافق على مضض ولكنه قال لها قبل أن ينصرف: سآتي بعد سبعة أيام لتخطريني بقرارك.. أعتقد أنها فترة كافية.

كادت تجن، ولم تعد تظهر. أغلقت شبابيكها تاركةً المنتظرين للصراخ والألم، وقد صارت تتألم أكثر منهم. كانت تفكر، بينما يفتك الصداع برأسها، أنها لو قبلت الزواج بواحد من هؤلاء العشاق الآن مفضلةً أن تضحي بصوتها، فلن يلبث أن يدرك الخديعة، لن يكفي جمالُها الصامت مهما بلغ لجعل رجلٍ يقبلها شريكةً لأيامه المقبلة.. ولو ضَحَّت بجمالها ليعيش صوتُها ستكونُ قد عادت لنقطة البداية.

قبل انتهاء المهلة بيومٍ واحد اختفت المرأةُ التي تغني. لا يعرف أحدٌ كيف خرجت من حصار العشاق الذين يُطوِّقون نواصي منزلها.. ولا كيف أفلتت من قبضة الولي الحديدية وعيونه التي تراقبها في كل مكان. اختارت بقعة –لا تزال مجهولةً إلى يومنا هذا– حيث أمكنها كما يُقال أن تحتفظ بجمال وجهها وحلاوة صوتها معاً. ظلت تُغنِّي، على أمل أن

ينجح رجلٌ في تعقب صوتها ليتزوجا بعيداً عن لعنة الاختيار. يُقال إنها لم تيأس حتى الآن، رغم أن مئات السنوات مرت، رغم أنها شاخت وذهب كلُ شيء، ولكنها لا تُصدِّق أو لا تريد. لا تزال خائفةً على ما كسبته، رغم أنه فُقد بالفعل. لا تزال ترفض الاختيار رغم أن الامتحان انتهى.. ولا يزال صَوتُها يبحث عن رجلٍ مستحيل.

الآن يمكنني بسهولة أن أدرك كيف أن جدتي جعلت الفتاة تعصى الولي، تنتصر عليه، رغم أن الحكاية نفسها تعني أنها تعرضت لأسوأ هزيمة ممكنة. لكن نعمة قالت لي، هو من يخبئها، ألم تلمح دموعاً في عيني جدتك وهي تكذب؟

# 4

**مددتُ يدي.**

تركتُ الخيط ينسل لتبتعد الطائرة.

استيقظ الأطفالُ فجأة، ونظروا لأعلى بينما تنفُض أيديهم التراب عن ملابسهم. انتهى الشجار في اللحظة التي حررتُ فيها مخلوقهم.

وحلَّ صمت، ملأته عيون متسمرة.

دون أن يتفقوا، أخذوا يلهثون خلف الطائرة الورقية. لم أقصد أن أوجهها في ذلك المسار الذي بدأت تقطعه بإصرار، متجهةً للضريح، حيث يمكن لها أن تنام على قبته، حيث سيعجز الصبية وهم يرون اللعب يشتبك بالقداسة، (ليسألوا أنفسهم لأول مرة: ماذا علينا أن نفعل؟)

هناك، حيث سيخوض الطائر الورقي في أوحال الطيور العمياء التي تتخبط بلا هوادة فوق قبته التي تقي رؤاه شر الشمس. لقد عرفت أمي تلك الطيور، وتخبطت في عماها، كما يردد صدى صوت نعمة الآن، مزاحماً صراخ الغناء في أذني.

لم تكن أمك تعبأ بشيء. فقط كان يجذبها مجهولٌ بعيد تعرف أنه يكمن بين الحوائط الملتصقة بها، لا شيء أبعد من أن تقترب، كانت في الليل تنصت للأصوات الصحراوية التي يرددها الصدى كأنها ملايين الأحلام البعيدة، الطيور التي تتخبط أعلى القبة محدقةً في عين الشمس، طيور عمياء كما يؤكد أهالي بلدتكم.. حدقاتها محترقة، ريشها كلها أسود، لا تكف عن التحديق في القرص الملتهب، وتموت في أماكنها ثم تسقط متحولةً إلى رماد حالك وتأتي أجيالٌ جديدة منها، تعيد الكرَّة. كل ذلك كان يجذبها، تَرًى الرجال والنساء بالأردية الداكنة كأنهم يرتدون الليل، بشراتهم مُلوَّحة: هل ترقد شمسٌ أُخرى بالداخل؟ يسيرون متمهلين، ناظرين للأرض، ففي بلدتكم لا يجروؤ شخصٌ على النظر لأعلى.

في المساء كانت ترى الأضواء الخافتة، تتحرك النجوم بطيئةً ومتوحدة وتقترب السماء حد أنها تُغلق نافذتها بوجل.

هكذا جزَّت ضفيرتيها المتطاولتين. حفرت في الفناء الخارجي وأسكنتهما ثم أهالت فوقهما الرمال. عادت إلى الداخل بشعر قصير حتى إنهم ظنوها غُلاماً. كانت تعرف أنها لن تغادر هذا المكان إلا جثة.. وكانت تعرف أن ماضيها لم يعد تبق منه سوى ضفيرتين ستذويان تحت الرمال.

كل حين، لدى خروجها، كانت تنبش الأرض، تُخرج الضفيرتين، تجدهما لم تتعرضا لأذى، فتندهش. تُملس بكفيها على الخصلات البيضاء التي بدأت تزحف في شَعرها، بسرعة البرق، كأنها تختصر في كل لحظة سنوات لتهرم، متأملةً ضفيرتيها اللتين يزداد في كل مرة سوادهما الفاحم.

ظلت تفعل هذا، حتى بعد أن صار شعرها بأكمله غطاءً أبيض يعلو وجهها، هي التي غادرت تواً الطفولة، وصارت يوماً بعد آخر تستشعر تجاعيد وجهها بأناملها، كأنها تتحسس قناعاً يخص شخصاً آخر، أما جسدها، فلم تنظر إليه أبداً منذ أغلقت الباب الثقيل خلفها وصارت أسيرة الحوائط، إلا لتتأمل تكورك.

ذات يوم أزاحت التراب فلم تجد الضفيرتين. نبشت بكفيها بجنون، فلم تجد سوى كائنات دقيقة وبقايا طيور سوداء محترقة وعظام تحولت في لمحة إلى مسحوق شاهق البياض، فوسَّعَت الحفرة وتركت جسدها يستريح لتخلو بطنها، لكنهم أتوا بك من التراب.

رغم الندم الخفيف الذي انتابني وأنا أرقب تقاطُر الصبية خلف مخلوقهم، إلا أنني فكرت أن ذلك قد يكون جيداً. قد أرى هؤلاء الأطفال ثانية، في المساء، قبل لحظات من موتي، يحاولون تخليص جثمان طائرة ورقية من بين الأسيجة المحكمة لنوافذ ضريح.

سحقني الغناء وقادني.

تأكدت أنني لست بحاجة إلا لأفتح باب مقبرة أمي، لتتجسد لي المرأة التي طالما بحثت عنها، لأقتل الصوت قبل أن يقتلني.

ما إن فكرت في ذلك، حتى خلا الطريق تماماً من الناس، و لم يعد من وجود إلا لي وللمقرئة التي استيقظ العالم في صوتها حتى ظننت أنه لن ينام.

# 5

بدفعة من يدي أوقفتُ اهتزازات جسد المقرئة الضريرة.

طالما بث صوتُها فيَّ قشعريرة غامضة. امرأة مكتملة تتلو القرآن بصوت مرتفع، رخيم، بالترتيل والتجويد اللازمين، وبتلونات الصوت المتفق عليها، وببعض الحشرجات غير المتوقعة والتجشؤات المفاجئة غير المقصودة.

في كل مرة كان صوتها يزداد خشونة، وتتضاعف الشعيرات المتفرقة على وجهها.. وتتخذ ملابسُها هيئةً أكثر ذكورة.. واليوم، ربما في هذه اللحظة التي صرتُ فيها في مواجهتها، اكتمل وجودها بلحية مكتملة.

يقولون إنها عندما أتت إلى هنا لتقرأ القرآن لأول مرة، كانت شابة جميلة، لكن بحدقتين بيضاوين، أحببتُ دائماً أن أتخيلها تكفر عن خطيئة قديمة بالترحم على الموتى الأدنى درجة.

(لكن نعمة تقول إن أبي جلبها من منام، زار فيه مدينة النساء الملتحيات، وحيث ليس سوى الآلاف من هذه المسترجلة التقية.)

كأنني اكتشفتُ أخيراً، بينما أضع إصبعي على شفتيها لأكبح بقايا الآيات التي ظلت تهمهم بها، أنني أمام امرأة. انتصبتُ، بعفوية وقوة، عندما بزغت في مخيلتي الفكرة التي استثارتني كما لم يحدث من قبل: أن أنام مع امرأة عمياء.. تتأوه بصوت رجل.. جسدها مفتول ومشعر.

كذلك استدعيت افتتاني الذي وُلِد معي بتلك الانحرافات المثيرة، الإخفاقات التي لم تفطن لها الطبيعة: بثور قليلة على جانبي الأنف أو صف أسنان غير منتظم في الفم.. احتراق غير متوقع أسفل البطن.. شعيرات تنبت في غير مكانها ويظل التخلص المستمر منها تأكيداً على حضورها الطاغي.. فوق الشفة العليا المخضر، أو أسفل الذقن.. غير أن هذه المرأة بدت وكأنما تجمع كل المفاتن المنحرفة تلك في جسد واحد، تتمنى ذلك بإصرار، وتحققه.. حتى انتقلت تماماً إلى الجانب الآخر.

ربما لهذا تعمدتُ أن ألامسها وأنا أطلب منها أن تتوقف عن التلاوة. كنت أختبر ذراعيها، ولم تخذلاني.. فقد لامستُ تضاريس نتوءاتهما الصلبة.

بدأت أحرك جسدها، كأنني أساعدها على اتخاذ اتجاه صحيح، بينما فاجأني تأجج انتصابي، ثم أجلستها بجانبي، على الأرض.

طمأنها صوتي الذي بدأ يتلو آيات الفاتحة، فخفُت تململها الحرج من التصاقي.

رحت أفعل ذلك الآن ببطء أكبر، وبخشوع لم أعرفه ربما أبداً، كأنما أتذوق الآيات الملتصقة بطرف لساني. فتحتُ كفي على آخرهما وألصقتها بجانبي وجهي، وبعد أن انتهيت غطيت بهما ملامحي لثوان.

لن أرى أمي بعد الآن. أذهلني هذا الشعور، كأن الذي سيموت اليوم هي. رغم ذلك لم ينطفئ انتصابي.

ومدت يدها بالمصحف الصغير الذي طالما رفضته، ليبدأ همسي بالآيات المتتابعة، متحركاً بجذعي للأمام والخلف كما كنت أرى الناس يفعلون، لأعيد السكينة لروحها القلقة. رغم ذلك لم يكن السبب هو الحنين بقدر ماكان شعوراً طاغياً بالخواء.

أحياناً أفكر أن أمي نفسها غير مقتنعة بما أفعله من أجلها، فحسبما أعرف، لم ترتد الحجاب ذات يوم ككل البالغات هنا. رفضت ذلك تماماً، رغم أن شعرها حتى لم يكن ناعماً.. وكانت تسلي فراغها بصنع تماثيل من الصلصال، صغيرة في البداية، ثم مالبثت أن راحت تضاعف أحجامها حتى صارت قادرة على صنع تماثيل بقامات إنسانية.

ببطء، بدأ جسدها الملتصق بي يهتز بدوره، للأمام والخلف، وهي تشاركني إلقاء الآيات من الذاكرة. بعد اختلالات أولى في الإيقاع وطبقتي الصوت ومناطق التوقف والتكرار والمسافات بين آية وأخرى.. تعرف صوت كل منا أخيراً على صوت الآخر، حتى بدأنا نقرأ بصوت

واحد. ظلت حريصة على أن يكون صوتي هو الأعلى، مبطَّناً بهمسها المحكم، وكنت أريد أن أتوقف فجأة أكثر من مرة لأنصت إلى صوتها منفرداً، بعد أن هيئ له أنه عاد صوت امرأة، ضعيف ومرتجف.

لم أكن أعرف أن اقتراب الموت يُحيي الذاكرة.

هل تعرفين حكاية هذه المرأة؟

هزت رأسها بالنفي، دون أثر لتعبير على وجهها.. بينما يتعثر صوتها، لا تعرف إن كان عليها أن تكمل وحدها، أو أن تصمت، لتنصت لي.

رضيع يتطلع لرماد امرأة شابة منثور على سرير الأهل. يتقدم النعش وتجتمع الأيادي، تتحد، للم التراب المتكوم فوق الملاءة. الرجال، بالجلابيب الطويلة، يحملونه باتجاه المقابر. ينوءون تحت ثقله رغم ذلك كأنه جثمان ثقيل. النساء لا يرتدين ملابس الحداد، لا يصرخن، لا يعددن، لا تتمرغ واحدة منهن في الأرض، لكن الدموع معلقة في أعينهن. هكذا اختارت موتها عندما طلبوا منها انتقاء طريقة تخلصها من أنفاسها: أن تُرمى بطلقة بندقية في رأسها، أو أن يُحفر لها عميقاً وتُدفن حية، أو أن تخنقها النساء. لكنها، حتى في موتها، اختارت طريقة أخرى خارج قائمتهم: أن تترك شباك غرفتها مفتوحاً.

بدأت تكمل التلاوة منفردة، بصوت متهدج وخافت وخائف.

بدأت تعود امرأة.

احترسوا للخدعة المحتملة، حَوَّط الرجالُ البيت، انتصبوا عند كل المداخل لكي لا تقفز. لم يطمئنوا إلا عندما رأوا بأعينهم القطعان المعتمة

تنهب الأرض باتجاه الشباك المشرع، رافعة خطوها لأعلى، باتجاه السماء، كنصال مشهرة.. قبل أن تقفز عابرةً حافة الشباك الواطئ.

أتلو الآيات من جديد، أتأرجح بجسدي للأمام والخلف، مطوقاً جسد الضريرة. نلهث معاً وقد بدأ الجنون يدب في تأرجحنا المحموم.. يعلو صوتنا وتتسارع الآيات بينما الفتاة الشابة تصرخ في وجه الرجال.

هل أعجبتكِ الحكاية؟

لا ترد، تحاول والعرق يهطل منها أن تُخرج يدي التي اندست تحت جلبابها وراحت تجوس فيها. تلهث، كابحة صرخاتها، يدي الأخرى تمسح ظهرها وتعبث بمؤخرتها. لم تصرخ، لم تطلب نجدة، لم تنهرني. هذا جيد. الكلاب فقط يمكنها أن تفضح كل شيء، ستصلها الرائحة الآن وستهرول نحو جسدينا.. يمكنني أن أصير أقرب إلى أمي.

يمكنني أن أجرب لمرةٍ أولى مفتاح باب المقبرة الصدئ، أدفعه بيد فيما يُكثِّر الصدى صوت حياته المضاعفة بعد سنين من الصمت، بالمطر البني لندف الصدأ الذي بدا كأنه يسقط من سماء حديدية.. بينما أدفع الضريرة أمامي، أقود عجزها بحنكة تاركاً لها حرية تخمين المكان الذي بدأت تستنشق الرائحة القديمة لصاحبته.. وبالضبط فوق تراب المرأة البعيدة، يهطل جسدان.

يمكنني الآن أن أستمع لأنفاسها، لمرة أخيرة، يغمر الصوت جدران المقبرة لكن دون أثر لجسد، ويختفي معه الغناء الصارخ كجن غادر أنحائي. يمكنني أن أتأمل ضياعاً جديداً للمرأة التي ظللت عمري كله أبحث عنها، وأنا أنفض ترابَ قاتلٍ عن أصابعي، قبل أن أكمل الطريق.

# 6

بدأت الرأس النازفة تلاحقني.

تدحرَجت خلفي مثل كُرة، فور أن بدأت أبتعد عن المقابر العمومية. أغلب الظن أنها انحدرت من فوق جبل الكحل الضخم على تخوم الطرف الآخر من الطريق، حيث لوثها المسحوق الداكن وصبغ وجهها ولسانها بالزرقة القاتمة المُرة. قطعَت طرقاً متعرجة، محتملةً الإهانة التي طالت ملامحها، إلى أن استقرت بين قدمي، بينما كانت المرأة الواقفة بصندوق الدنيا تصرخ، "قرَّب.. قرَّب"، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب من بضاعتها.

انحنيت والتقطت ما ظننته في البداية كرة طائشة. كنت على وشك أن

أركلها لأعيدها للأطفال البعيدين، لكن قطيع الصبية كان قد ترك سيقانه للريح مخلِّفاً سحابة تراب كثيفة.

في هذه اللحظة سمعت الصوت الملتاع يصرخ من بين ساقي: "إنني أبحث عن جسدي".

هبطتُ بعيني، وبكل الرعب رأيت الرأس الغريبة، تنز الدماء الساخنة من موضع بترها عند العنق. كانت رأس رجل، لها شارب ولحية كثيفان ويغطي فروتها شعرٌ غزير ثقيل أسود. كانت العينان جاحظتين والوجه مزرقاً واللسان يطل متدلياً من خارج الفم.. ويسيل منه لعاب لزج مزبد دون توقف.

ظللت أزيح طبقات رعبي وأنا أتأمل العينين الحيتين.

كنت أحد الأشخاص القادرين، في هواء المعجزات المخاتل الذي يطوق الطريق، على هزيمة الوهم المرعب، والاحتياط لحيل السحرة في تقديم أنفسهم بأشكال مبتكرة، لكن ما رأيته كان قادراً على إزاحة وهم المعجزات نفسها.

كان الأهالي قد تعرضوا مراراً لخدع من هذا النوع، بطلها في الغالب الشيطان وأعوانه، وتعلموا أن "الفضول هو أسرع الطرق للخسارة" مثلما كانت جدتي تردد، فينهرها شيخ الطريقة: "الفضول طريق الألم، والألم سبيل المعرفة".

بالتأكيد رأى الأهالي هذه الرأس في رحلتها الطويلة التي تركت خيط دماء في الطرقات، وبالتأكيد تجاهلوها. حتى لو حدس البعض أن هذه

الرأس قد تكون تسربت من عربة السيرك التي تجوب البقاع لتقدم عروضها للأهالي فإن ذلك نفسه كان أدعى لتجاهلها بشكل أكبر، لأن الناس في مدينتنا كانوا يصدقون أن السحرة والحواة وكل العاملين بالسيرك ليسوا سوى أسرى للشيطان، حتى أن العديد من البيوت الفقيرة الضيقة الباحثة عن أي رجل للعانسات، رفضت زواج بناتهن من رجال أشداء مفتولي العضلات موفوري الصحة خوفاً من إنجاب مسوخ مشوهة.

لسوء حظها، استقرت الرأس بين أقدام الأطفال في ساحة المقابر الترابية. بدت لهم تلك الكرة الغريبة مدهشة بشكلها غير المسبوق، وما إن انحنى أحدهم ممسكاً بها فوجئ بها تحدثه قائلة: "إنني أبحث عن جسدي". تركها الطفل مفزوعاً وركض مع بقية أقرانه هاربين ليتركوها وحيدة من جديد.

واصلت الرأس زحفها، ولم يمض وقت طويل حتى كانت البلدة كلها قد شاهدت الرأس المبتورة التي تتجول في الشوارع بين أقدام الناس طالبةً المساعدة. بعد لحظات الرعب الأولى صار الناس يهشونها بأقدامهم بقسوة، لأنهم ظنوها روحاً شريرة. عندما تفقد المعجزة رعبها، تتحول إلى شيء أكثر ألفة مما يراه الناس كل يوم، وقد كانت "جبل الكحل" واحدة من أكثر البلدات قدرة على تحويل رعب وجود معجزة إلى ما يشبه أرقاً يومياً يكفي تجنبه لكي يتبخر.

"ماذا تريد؟"، سألت، فأجاب الفم المليء بأسنان من ذهب: "لو كنت ذاهباً ناحية الضريح، اتركني عند بائع المعجزات، هو يعرف كيف يرد إلي جسدي".

ارتجفت، هل سأذهب إلى إسحق بقدمي؟ ولأقدم له هديةً ثمينة تلائم مسوخه الملقاة بجانبه بإهمال، والتي كانت تبعث على القشعريرة؟ كدت أن ألقي بالرأس من جديد لتواجه مصيرها بعيداً عني، لكنها همست، وقد قرأت أفكاري، "لقد رأيتك وأنت تقتل المرأة، وعليك أن تنفذ ما أريد لكي لا أصرخ في البلدة كلها بفعلتك".

– إن لم تفعل فستبدأ هذه المرأة صاحبة صندوق الدنيا في عرض ما حدث الآن.. أما إن وافقت.. فلنذهب إليها لنرى الحكاية ونتخلص منها.. والأهم من كل ذلك، ما لا يمكنك رفضه، أنك من خلالي فقط ستعرف طريق العثور على أمك بدلاً من قتل النساء البريئات!

# 7

كانت امرأة صندوق الدنيا هنا، منذ حياة أبي، لكني لم أسمح لنفسي أبداً بالتوقف للفرجة على صورها، رغم أن شيخ الطريقة ظل يؤكد دون كلل أن نساء أبي في الطريق لا يمكنهن إلحاق الأذى بالأتقياء. "الناس للأسف يخشون المعرفة ويعتبرونها آتية من الشيطان، حتى من يحبون أباك.. يخشون الشيطان أكثر".

اقتربتُ منها وأنا أهتز فوق مسخي ممسكاً الرأس من شعرها بيدي اليُمنى، فصفقت المرأة كالمجذوبة.

"أخيراً ابن الولي أصبح زبوناً لي.. إنها نهاية العالم!".

أرعبني صوتها قبل كلماتها، ورأيت عينيها الغريبتين، اللتين تتبادلان موقعيهما مثلما يفعل المهرج بكرتين ينقلهما من يد للأخرى.

"لا تخف.. إنني أبدل بينهما كي لا أمل الرؤية.. فليس صحيحاً أننا نرى الشيء نفسه بعينينا الاثنتين.. كل منهما ترى ما لا تراه الأخرى".

وتنهَّدت بضيق، لكن الرأس قالت لها آمرة، "هيا اعرضي حكايتك.. فلا وقت لذلك الشاب الذي سيموت بعد قليل".

من جديد ارتعبت، وتحاملت كي ابتلع الابتسامة الغريبة التي ارتسمت فوق الوجه المُقتَلع.

لم يبد أن المرأة اندهشت من منظر الرأس المرعبة. استدارت ببساطة حيث رأيت سلسلة ظهرها العارية تنتهي بعظام العجيزة والساقين الفارغتين، فتجمد الدم في جسدي من المشهد الذي لم أر مثله في حياتي.

إنها ابنة الرجل الذي هزمه الشيطان، ولحكمة ما قرر أبي لها أن تعيش للأبد، مثلما ترك الشيطان نفسه بصندوق دنياه يأتي في كل عام إلى المولد، وللأسف، كان الناس يتزاحمون عند الشيطان ويتركونها تتسول قرشاً لتأكل.

مددت رأسي، وبالمثل فعل مسخي الذي يبدو أن الفضول قتله، وكنت ما أزال ممسكاً بالرأس.

لكن ما تقتلني الرغبة في رؤيته لم يظهر مباشرةً، بل تجسد أولاً على الشاشة البيضاء رجل يشبه امرأة صندوق الدنيا بالضبط، سمى الله وصلى على نبيه، قبل أن يبدأ في سرد حكايته.

# 8

يقولون إنني شيطان، لأنني أطلعكم على الصور، لكن الولي لا يُحرِّم الصور، إن ذوي اللحى هم من يفعلون ذلك، وهم يريدون موته، وهدم ضريحه، ويستعيذون بالله منه ومن أتباعه كأنهم أنجاس، وقد ضربوني بالأمس، وأول من أمس، وسيضربونني اليوم وغداً لكي أكف عن تعليمكم أصول القبلة من خلال هذه الحكاية الخلابة، التي هي حكايتي.

في البداية كان الناس يسمونني شيطاناً لأسباب أخرى، أسباب يمكن تفَهمُّهَا، كنت أول رجل يدخل مدينتكم حاملاً على ظهره صندوق دنيا، ولذلك كان مُبَرراً أن يخاف مني الأهالي في البداية، وأن يحذروا أبناءهم. الأهالي كان معهم بعض الحق، فكما تعرفون، عندما تبدأ المدن حياتها تبدأ

المعجزات في الظهور ثم تصير شيئاً عادياً قبل أن تختفي تماماً ويبقى الناس نادمين للأبد. وحين ينشأ أي عمران فلابد أن يظهر الشيطان، إنه مجبول على ذلك فضلاً عن كونه شغفاً. وقد تنكر الشيطان عدة مرات وأتى للبلدة متنزهاً في أقنعته، مرة كساحر يحول الأطفال في لحظة إلى رجال، ليساعدوا آباءهم الفقراء، هكذا يقول وهكذا يصدق الفقراء، فيتحول الآباء في لحظة إلى أطفال ويتم تبادل الأدوار بينما تصرخ النساء، ومرة كبائع ورد يغوي السيدات بجماله فتمتلئ وجوههن بالأشواك وتحاط رؤوسهم بالأوراق التي تزدهر وتذبل، آخر مرة تنكر الشيطان في هيئة سحابة راحت تعبر بين البيوت ويلامسها الأطفال بسعادة غير مصدقين فيتحولون إلى مقامرين.

الشيطان زار بلدتكم كثيراً، كما يفعل في البلدات الصغيرة التي تعيش في سلام.. ولكن العبد الفقير لله الذي دخل البلدة بصندوق دنيا لم يكن شيطاناً، بل عاشق شاخ فجأة.

ولأن الأطفال، والحمد لله، لا يصدقون آباءهم إلا داخل البيوت، فقد التفوا حول صندوقي الأسود وكان يكفيهم أن يمدوا رؤوسهم فيه فيشاهدون صورا متحركة على قماشة بيضاء. الأطفال فكروا أنني حتى لو كنت شيطاناً فلن أصيبهم بأذى، لأنهم كانوا يعتقدون ببراءة أن أهاليهم يكرهون الشيطان لأسباب دنيوية بحتة تخص الرزق أو العمل، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الأسباب الحقيقية التي تخص السماء. هكذا بدأوا يتفرجون على بضاعتي مدهوشين. كانت صاعقة أن يتمكنوا من رؤية أشياء تتحرك على البياض كأنها حقيقية وتتكرر بعد ذلك كلما أرادوا أن

يشاهدوها مرة أخرى. كنت أعرض قصة واحدة عن شاب متزوج من فتاة يحبها ولكنها ترفض أن يُقبِّلها كلما هم بذلك، ثم تموت الفتاة ويطلب منه أهلها أن يمنحها قبلة الوداع فيرفض كي لا يغضبها في موتها. في المساء تزوره في حلمه وتقول له: "ليتك قبَّلتني هذه المرة.. كنت ستعيدني للحياة". يجن جنون الرجل ويتحول إلى مجذوب مطلق اللحية يشبه كثيراً صاحب الصندوق نفسه، العبد الفقير لله. كانت الأحداث بلا صوت، وكنت أتولى أداء صوت الشخصيات. ما هي إلا أيام قليلة حتى صارت البلدة كلها تحفظ عن ظهر قلب حكاية القُبلة.. في بلدتكم لم يكن وجود لرجل يقبل زوجته، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تعرف فيها بلدتكم ذلك الشكل من التواصل بين الزوجين. بعد أيام انضم الأهالي لأبنائهم مجازفين بكل شيء، فلم يستطيعوا مقاومة سحر الفرجة. كنتُ رجلاً صالحاً أعرف أن لا ضرر ولا ضرار، زبائني أطفال لا لوم عليهم، ولذلك منعتُ البالغين ممن لم يتزوجوا بعد، فالشيطان يعيش بين أفخاذهم.

المفاجأة أن الشيطان كان ضيفاً على بلدتكم في تلك الأيام، ولكن أحداً لم ينتبه له، لأنه لم يتنكر كالعادة في هيئة شخص أو طير أو حيوان، لكنه تنكر في هيئة قُبلة ماجنة. نعم.. وجد الملعون لنفسه مكاناً بين شفاه كل حبيبين، بحيث يزرع الرغبة، وكان يتنقل بسرعة وخفة. كان الشيطان ممتناً لي وقد أسديت إليه هذه الخدمة الجليلة دون أن أقصد، ورأى أنني أصلح لأكون تابعاً له، بحيث يدلني على الأماكن التي يرغب في زيارتها مقابل الأجر الذي أطلبه، وكان الشيطان يعرف أني فقير مهزوم.

توجه الشيطان إليَّ في المساء، حيث أنام بجوار صندوقي متدثراً بخرقة

خشنة مع طفلتي الصغيرة. لم أنتظر أن يُعرِّف الضيف نفسه، قلت له فور أن ألقى السلام، أنت الشيطان. اندهش، وسألني: كيف عرفتني؟ فأجبت: لأنك الوحيد في هذه البلدة الذي يهمس.

أخبرني الشيطان بطلبه. بعد تفكير عميق قلت، "موافق.. بشرط.. أن تنقل قُبلتي لجثمان زوجتي التي رفضتُ تقبيلها بعد موتها.. إنها لاتزال تنتظر".

بعد لحظات من تقليب الأمر وافق الشيطان. قلت له، "سأنتظرك هنا.. وسأسدي لك جميلاً لا تحلم به". ذهب الشيطان، وفور أن أتم مهمته عرفت بالنبأ.. لأن نهاية الأحداث اختلفت في صندوق الدنيا الذي أحمله، فقد عادت زوجتي للحياة، ولكنها عادت لمن منحها القبلة.. للشيطان الذي تنكر في صورتي. جريت تاركاً كل شيء وأنا أحمل الرضيعة بعد أن رأيت بعيني خدعة الشيطان لي، كي ألاحقه قبل أن يحول زوجتي لشيطانة جارية، لكن الشيطان عاد للبلدة من طريق آخر، متنكراً في صورتي بعد أن أودع زوجتي مكاناً سرياً مع بقية جارياته، وأقنع الناس الذين سألوه عن سر هرولته المفاجئة منذ قليل أنه ذهب ليتفق على حكاية جديدة ثم عاد في سرعة البرق، ولم ير الناس فرقاً بين الشيطان وبيني. بدأ الشيطان أيها المؤمنون يدير صندوق الدنيا من جديد، سعيداً بأنني تركته خلفي. ولأن نهاية الحكاية صارت أجمل بعودة الزوجة لزوجها بعد موتها، فقد ازداد إقبال الناس حتى من البلدات البعيدة، وهكذا بدأ يعرض كل حكاياته الآثمة، بينما ظللتُ عمري كله أبحث عن زوجتي المختبئة دون جدوى، وكل ما استطعته أن أدبر صندوق دنيا آخر، عدت به مع ابنتي لأعرض ما

حدث، لكن زبوناً واحداً لم يقترب، فمت بحسرتي، وأدعو الله أن يكون نصيب ابنتي منكم أفضل مني.

# 9

مسحت المرأة دموعها وطلبت منا أن نقرأ الفاتحة لأبيها ففعلنا. ما إن انتهينا حتى بدأت تتحرك على الشاشة نقاط شبحية مالبثت أن أخذت تتجسد. ركل المسخ التراب بقوائمه مثيراً الغبار وهو يتفرج عليَّ وعلى نفسه، منذ خرجت به من البيت وحتى تركته أمام باب المقبرة كي يحرسني. ظل الحيوان يحفر بقوائمه الأرض مستثاراً حتى ترك أربع حفرات غائرة و لم يهدأ إلا عندما أظلمت الشاشة من جديد، وهنا قالت الرأس ضاحكة، "لقد أخليتُ لك الطريق، ولذلك هربت بفعلتك، أرأيت أي جميل أسديته إليك؟"

لم أتخيل أن هذه الرأس من فعلت ذلك، وعدت لأتساءل، أي رأس معجزةٍ تلك وكيف تأتَّى لها ذلك وما حكايتها، والأهم، ماذا تريد منيً؟

استدارت امرأة صندوق الدنيا بسعادة، فعاد جسدها للظهور، "انظر.. لمجرد أنك أتيت.. ها هي الطوابير تقف لترى الحكاية.. ولأول مرة سأتمكن من الحصول على وجبة تعيد اللحم لعظامي.. ليتك فعلت ذلك من زمان!"

تيبست عروقي، وقد اكتشفت أنني أصبحت نقطة في بحر من الناس تجمعوا مشهرين قروشهم، وقد اطمأنوا لوجودي.. لكن أسنان الرأس ما لبثت أن غادرت لثتها منفرطة في الهواء، ثم أخذت تسبح مقتربةً من المرأة التي بدأت تنظر مندهشة. انغرست مثل أذناب عقارب ذهبية في وجهها وعنقها، قبل أن تعود للفم الذي أطلقها غارقةً في الدماء، وتكفل المسخ بتحطيم صندق الدنيا بحوافره بقوة وقسوة لم أتخيل أنه ما زال محتفظاً بهما في ذبوله. فر الناس بسرعة، بينما استعادت الرأس هدوءها لتكذب بصوتٍ عالٍ سمعه الجميع: "لقد قام ابن الولي الشجاع بهذه المخاطرة ليخلصًكم مٍن الشيطانة ابنة الشيطان".

# 10

كان "إسحق" عجوزاً غريباً ممسوخاً بحاجبين كثيفين مقلوبين تحت عينيه، وله أنف بلا ثقوب، وهذا هو السبب في أنه لم يكن يغلق فمه حتى أثناء نومه لأنه كان يتنفس من خلاله. لم يكن يأكل، لأن الطعام كان يعوق تنفسه، ولا يعرف أحد كيف كان له أن يعيش كل هذا العمر دون أن يتناول طعاماً.

كلما عبرته، في الطريق لأبي، أسمع الصوت المرعب "السلام لله"، لكني لا أرد.. وبينما أبتعد، أسمع صيحته: "سلم لي على سيدنا الولي". لقد استأنسه أبي بعد أن قضى على البلدة مرتين، و لم يكن من الممكن أن يتركه مرةً ثالثة، وقد تأكد محبطاً أن البلدة لن تنجح أبداً في ذلك النوع من

الاختبارات، وأن الألم الذي تركهم يتذوقوه كي يصل بهم إلى المعرفة، ظل يقودهم بالكاد لألم جديد. أسره أبي في سلاسله الغليظة التي تربطه بأقوى شجرةٍ في الطريق، وهي شجرة ضخمة معمرة يقال إن أبي كان يستظل بها في النهارات القائظة، فصار بائع المعجزات من يومها منذوراً فقط لتنفيذ أوامره.

عندما ظهر لأول مرة، ظنه الناس ملاكاً، فقد رآه الجميع يرفرف هابطاً من بين السحب، حتى إنه عندما اصطدم بالأرض كانت ندفٌ تشبه القطن تغمر جسده العاري. كانت عيناه في زرقة السماء، ولون شعره في صُفرة الذهب البراقة. جسده قوي، وقامته تتجاوز أسطح أعلى بيوت البلدة، أما صوته، الذي انطلق بالتأوهات فور سقوطه القوي من السماء، فقد كان يشبه غناء طائر. سقط في الساحة الرئيسية، على مرأى من الجميع، بجروح وكدمات غمرت جسده الشمعي شاهق البياض، فبدت كعلامات رعب داكنة. ولأن ذلك حدث في زمن الحرب، حيث المعجزات هي الحقيقة الوحيدة.. فقد تأكد الفقراء أن الله قد تذكرهم أخيراً بهدية، غير أنهم لم يعرفوا كيف سيستخدمونها أو يستفيدون منها.. كما أصابتهم حيرة: كيف سيقتسمون هذا الرجل بينهم؟ وفكروا أنهم حتى لو مزقوا جسده إلى قطع صغيرة لن تكفي كل البيوت. ما إن بدأ يفيق من سقطته مستعيداً القدرة على النطق تأكدت في عيونهم المعجزة: كان ينطق بعبارات تنتمي للغة غريبة لم يسمعوا بها من قبل، خمنوا أنها لغة الملائكة. هكذا نسي أهل البلدة مؤقتاً حزنهم على أبنائهم الذين يذهبون للحرب ولا يعودون، واختفت الدموع فجأة، والصرخات القادمة من ظلمة

الغرف الفقيرة الضيقة داخل البيوت، والآلام المعجونة بلون التراب.. مقدرين أن ذلك الملاك يحمل تعويضاً ما، قد يكون غامضاً وغير مفهوم، لكنه لن يلبث أن يكشف عن سحره الدفين.

عندما تجاوز أجدادنا رهبة الأيام الأولى، وتجرأوا على الاقتراب منه بل وملامسته.. اكتشفوا عدداً هائلاً من القطع الذهبية متناثرة حوله. اقتتلوا من أجلها، مات من مات ونجا من نجا.. قبل أن يتفقوا، مع تزايد أنهار الدماء التي غمرت الشوارع وصبغتها بلون الحناء وعبرت أبواب البيوت حتى استقرت بداخلها وبدأت زحفها على الجدران لتخفي ملامح صور الشهداء على الحوائط، على ألا يحدث شجار آخر، خاصة وأنه منحة إلهية لا يجب أن تُهان أو يُساء إلى قدسيتها. اتفقوا بعد جلسات مطولة على أن تستضيف كل أسرة منهم الملاك يوماً. تشاجروا من جديد على ترتيب الاستضافة بين الأُسر، وكادوا يقتتلون مرة أخرى، إلا أنهم اتفقوا في النهاية على أن تبدأ الاستضافة من الأغنى للأفقر. ورغم أنهم جميعاً كانوا في النهاية فقراء، فإنهم بدأوا، ولأول مرة في تاريخ البلدة، يحصون ممتلكاتهم القليلة ليميزوا مواقعهم.. ورغم أن الحرب، ومنذ بدأت، كانت قد جعلتهم بيتاً واحداً، إلا أن كل ذلك انتهى الآن.. فجأة، وبكل القسوة الممكنة.

أخيراً اتفقوا.. وكانت نعوش الأبناء في هذه الأثناء تأتي وتذهب ليخفيها التراب دون أي طقوس أو دموع كأنها تخص أشخاصاً آخرين لم تكن لهم ذات يوم أرجل حية تلهو فوق هذا التراب بالذات. حتى صور الراحلين لم تعد تُعلَّق على الجدران.

الغريب، أن الفأل الحسن للمخلوق السماوي ما لبث أن تحوَّل إلى لعنة.. فمع كل بيت يبيت فيه كانت النساء يستيقظن على دماء أزواجهن وأبنائهن الذكور، مقتولين بقسوة. ورغم أن الأمر صار يتكرر يومياً وبنفس الطريقة.. إلا أن من لم يستضيفوه بعد كانوا يجازفون، موقنين أن الخير ربما يكون من نصيبهم هذه المرة، وهو ما لم يحدث أبداً. ولم يمض وقتٌ طويل حتى كانت البلدة قد صارت بلا ذَكَر، إلا ذلك الغريب الشاحب الذي حوَّلها لقطيع من النساء.

الذين عادوا من الحرب، وكانوا قليلين، وجدوا أنفسهم مضطرين لتأسيس نسل جديد، ما إن بزغ وبدأت الذكرى الدموية تخفت، حتى عاد إسحق قادماً هذه المرة من تحت الأرض وهو يحمل فوق رأسه قفصاً ضخماً.

ظهر تلك المرة في آخر أيام المولد، مقدماً نفسه كبائع معجزات فريد من نوعه، وقرفص محاطاً بأقفاص وعلب كبيرة مليئة بمسوخه. يقال إنه يومها جاء متنكراً، بلا وجه، حيث كان وجهه صفحة مستوية من اللحم بلا ملامح، لا عينين ولا أنف ولا فم ولا أذنين. لم يعرف أحد متى فقد وجهه ولا كيف. خمن بعض من اقتربوا من الرجل الممسوخ أن ذلك حدث في الحرب الأخيرة. تعالت الهمهمات، في لحظة مشاهدته نفسها، حاملة اليقين. أكد البعض: إنه بالتأكيد أحد رجالنا العائدين من الحرب، لقد كشط الأعداء ملامحه وتركوا وجهه قطعة من العجين تنتظر من يعيد تشكيلها.. بينما أكد آخرون: لا، لابد أنه ولد هكذا، برأس خالية هي كرة من اللحم الأخرس، لأن وجهه الممحي لا يحمل أي آثار تعذيب.

تركهم بعض الوقت يتناقشون، لما بدأت تعلوا أصواتهم، وتمتد الأيادي، أسكتهم بصوت سحيق: أنا بائع وجوه، أرسلني الولي لكم بعطية. ثم نزع ملاءةً من الخيش عن سره، فرأوا قفصاً كبيراً من الخشب مليئاً بالوجوه الحقيقية التي كانت تنبض بالأنفاس الحية وتتحدث فيما بينها بأصوات عالية. وصلت للناس ضحكاتها وصرخاتها وبكاؤها.. وأمام الأعين الجاحظة، بدأ يطعمها بيده.. ويدهن الوجوه النسائية منها بالمساحيق، ويهذب لحى وشوارب الوجوه الذكورية بالموسي، كذلك كان يهتم كثيراً بتصفيفات شعورها. كانت الوجوه تتحرك داخل القفص الضخم صانعة جلبة فظيعة كأنها طيور ضخمة.. وكان هو يفتح باب القفص بحرص شديد، كأنه يخاف أن ترفرف مبتعدة إذا غادرت سجنها.

في البداية كان الناس يتفرجون على ما يحدث باعتباره طقساً جديداً عليهم، وظنوا أن المقابل هو بعض القروش كما تعودوا مع الباقين، ولكنه رفض تقاضي أي أموال.. وقال: "لقد جئت لأمنح الوجوه لمن يريدون تغيير وجوههم، وليس لأحصل على مال". ارتجف الجميع حين سمعوا عبارته الغريبة، وتحسسوا ملامحهم في رعب، غير مصدقين ما سمعوا. كان صوته يأتي من مكان مجهول في جسده، بصدى مخيف وحاسم، وأكمل الصوت "المقابل الوحيد الذي سأحصل عليه من أي شخص يريد تغيير وجهه.. هو الحصول على وجهه الأصلي. سأنزعه برقة دون أي ألم، سأكشطه بنعومة دون نقطة دماء واحدة وأمنحه بدلاً منه الوجه الذي يختاره بنفسه.. سأثبته مكان ملامحه القديمة ليصير وجهه الجديد الذي اختاره.. بدءاً من هذه اللحظة لن يكون أحد منكم مجبراً على الحياة بوجهٍ

ورثه عن آبائه دون أن يختاره".

تردد الناس عدة أيام، فلم يكن أحد منهم يملك شجاعة البدء وجسارة المبادرة.. غير أنه، ومع أول شخص تجرأ واستبدل وجهه القديم – وكان شيخ المسجد نفسه. تجرأ الباقون وبدأوا يستبدلون وجوههم. كان أغلب الزبائن من أصحاب الملامح الدميمة والمشوهة والشائخة، عجائز ذابلون، مصابون في حرائق، مشوهون بفعل الحروب أو العيوب الخِلقية.. وأرامل وعانسات قبيحات. كان الشخص يختار الوجه الذي يروق له.. ويستسلم لبائع الوجوه، الذي ينزع الوجه الأصلي ويضعه في القفص، ليمنح صاحبه واحداً آخر.

سألوه من أين يأتي بهذه الوجوه الحية فرفض الإجابة، وسألوه أيضاً لماذا لا يضع وجهاً مكان ملامحه الخالية المُرعبة رغم أنه يمنح الوجوه للناس، فقال إنه يبحث عن وجهه القديم الذي فقده ذات يوم، ولا يريد سواه.. وعندما سألوه كيف فقد وجهه، قال: تركني حين لم أعد أراه.

كل الوجوه التي بحوزته كانت جميلة.. وظل الناس يتساءلون عن السبب الذي يجعله يقبل بتسامح الحصول على وجوه قبيحة ومشوهة ليمنح بدلاً منها وجوهاً تليق بملائكة.. ولكنه أيضاً رفض منحهم إجابة حاسمة، واكتفى صوته بالقول، "أنا مجرد بائع فلا تسألونني إلا عمَّا تريدون".

في الصباح الذي قرر فيه الرحيل إلى حيث سيجلس في الطريق، كان قفصه الضخم قد اكتظ بوجوه الأهالي، وبينما كان بائع المعجزات الذي

بلا وجه يتخذ مكانه على جانب الطريق سعيداً، كانت الملامح قد بدأت تذوب على وجوه أصحابها، لتتساقط تحت أرجلهم، تاركةً حواسهم للظلمة.

قال لي حجاج إن البلدة احتاجت سنوات طويلة أخرى قبل أن تنبت للأجيال التالية وجوه يمكن التعرف عليها، قال إن من حاولوا الانتقام منه انتهوا بالتحول لمسوخ غريبة من تلك التي يبيعها للغرباء الأثرياء الذين يأتون بسياراتهم الفارهة في أيام المولد بحثاً عن معجزات يشترونها.

# 11

تيبس الدم على أصابعي، حتى هيئ لي أن يدي تجمدتا، عندما اقتربت من إسحق المرعب.

فور أن صرت أمامه، انفلتت الرأس من قبضتي متدحرجةً حتى توقفت بين ساقيه.

انحنى البائع على الرأس الغريبة، وسال من فمه لعابٌ ثقيل غسل شعرها، ثم حملها بين يديه برفق، وبدأ ينفض عنها التراب كأنه يهدهد رضيعاً.

"لقد غبت سنين طويلة لتعود إلي بهدية ملائمة!"

تلقيت عبارته بابتسامة مغتصبة. تجاهلت دائماً نداءاته لي وأنا أعبره متجهاً إلى أبي. كان قدرٌ من برودي نابعاً من علمي أنه لا يستطيع إيذائي أو مسخي مثلما يفعل مع من يحنق عليهم، لكني في أعماقي كنت أرتجف متمنياً التخلص منه. لقد اعتمد عليه أبي بعد أن أسره في عدد من أشد مهماته حساسية وخطورة.

– آه يا طفلي.. أما زلت تتذكر؟.. ليس هناك ما هو أخطر من ذاكرة طفل!

انتبهت من جديد. لم أندهش كثيراً لأن بائع المعجزات قرأ أفكاري.. لكني ارتعدت عندما رأيت الرأس بين يديه تستغيث.

"إنني أبحث عن جسدي أيها الشيخ.. ألم تر جسداً يتجول بلا رأس في هذه الأنحاء؟ أعرف أنك الوحيد القادر على مساعدتي.. إن الولي يأمرك بمساعدتي ولذلك أرسلني بصحبة ابنه لأول مرة في تاريخه".

تلقيت كذبة الرأس صامتاً، وصوَّب بائع المعجزات لي نظرةً عميقةً ليتأكد من صدق الرأس، فلم يجد بالمقابل سوى نظرة خالية.

رد إسحق بنعومة الدهاء التي يتقنها: "أخشى أنك ستحتار في التعرف على جسدك.. لأن في هذه البلدة أجساد كثيرة تهيم بلا رؤوس".

هكذا وضع البائع الرأس في حجره قائلاً: "إن ملامحك الوسيمة اختفت مع شعرك الهائش المعفر ولحيتك الكثيفة الوعرة والدماء المتيبسة بامتداد وجهك.. سأعيدها لما كانت عليه ثم يكون لنا كلامٌ آخر!".

بدأ البائع عمله وهو يفكر في أنه صار يملك ثروة حقيقية بين يديه..

فهذه الرأس المقطوعة التي تتحدث يمكن تلقينها حكايات كثيرة مسلية وبيعها بعد ذلك في مزاد ضخم لمن يدفع أكثر من السحرة أو الأثرياء.

أخرج أدواته من صندوق معدات كبير يرقد بجانبه، وراح يهذب الشعر واللحية ويضمد الكدمات والجروح ويزيل طبقات الدم والطين والتراب وكان رنين السلاسل التي تهتز مع ذراعيه وقدميه يتردد داخل عروقي فأدعو الله ألا تتجمد. عندما انتهى هتف لنفسه وهو يرى الوجه: "يا إلهي.. إنه أجمل وجه رأيته في هذا العالم طوال سنوات حياتي التي قاربت على الألف!!".

قالت الرأس: "أشكرك أيها الشيخ.. هل يمكننا الآن أن نبدأ مهمتنا؟"

لكن البائع الذكي أجاب: "بالطبع أيها الفاتن.. لكن ليس قبل أن أعرف حكايتك".

– "للأسف.. حكايتي لا يمكن أن تُحكى قبل أن تعود رأسي لجسدي.. فقد أطاحوا برقبتي غدراً.. وسُحِر لي فلا يمكنني سرد ما حدث لي إلا وأنا مكتمل.. لأنني وقتها سأستطيعَ الانتقام لنفسي وسأغدق على من أرشدني لاكتمالي.. سيحصل على أسناني الذهبية التي تساوي ثروة هائلة، كما سأخلصه من قيوده، فلكل شخص في هذا العالم قيوده".

سال لعاب إسحق وهو يرى الأسنان الذهبية، وحرك السلاسل الغليظة في ذراعيه وقدميه محبطاً، كأنه تذكر فجأةً عجزه الذي جعله أسير مكانه منذ سنوات لا تُحصى ككلب حراسة وفي لسيده رغم أنفه، وهنا قفزت إلى عينيه نظْرة متشككة، فهمتها على الفور فأجبت:

- الولي أمر بتحريرك من أصفادك لو أتيت بمعجزة أخيرة وأنقذت ذلك التقي.

من جديد حدق إسحق في عيني، مستبعداً أن أكون كاذباً.

بلهفة بدأ يخرج مئات الأجساد التي بلا رؤوس من أجولته، بينما أكاد أتهاوى فوق مسخي من الرعب، جربتها الرأس واحداً واحداً لكنها لم تعثر على ضالتها في أي جسد.

بإحباط المقامر، قال بائع المعجزات، للأسف لم أعد أملك أي جسد، لكن الرأس قالت: لقد أتعبتك معي.. ولابد أن أعوضك.. لو سمحت لي.. يمكنني أن أستعير جسدك لدقيقة واحدة.. حيث يمكن لأسناني أن تسقط بين يديك وحيث يمكنني أن آمر قيودك بالذوبان.

تردد البائع لكنني طمأنته بإيماءة. مد يديه بسلاسلهما الغليظة إلى رأسه، خالعاً إياها بسلاسة أدهشتني.

ما إن استقرت الرأس على رقبته، حتى هتفت: ما أجمل هذا الجسد.. إنه بالضبط ما كنت أبحث عنه!

ارتعبت رأس بائع المعجزات تحت أقدامنا وقال فمها: كيف؟ إن هذا جسدي الذي ولدت به قبل ألف سنة.. وأنت لا تزال شاباً صغيراً!

رد الآخر بابتسامة مرعبة وصوت واهن: كيف تقول ذلك؟ انظر إلى وجهي جيداً!.. في هذه اللحظة وجد بائع المعجزات أمامه وجهاً عتيقاً عجوزاً متغضناً.. قال صاحبه: لقد تمنيت كثيراً أن أكون بائع معجزات.. وفعلت كل ما يمكنني طيلة مئات الأعوام.. ولكن كان لابد من خداعك

أنت حتى أكون أهلاً لذلك!.. لقد ضحيت بجسدي نفسه حتى أحصل على ما أريد.. وطفت الدنيا متدحرجاً حتى أصل إليك.. وكنت أعرف أن الفضول نقطة ضعفك الوحيدة.. هذه حكايتي.. وها أنا أحكيها لك بعد أن صرت مكتملاً كما وعدتك!

ثم ضحك قائلاً: وأول معجزة سأقدم بها نفسي للبلدة هي أنني امرأة خدعت بائع المعجزات نفسه وحصلت على جسده.. وستظل رأسك هذه علامة على فعلتي.

قال الرجل ذلك ليصير وجهه وجه امرأة، ناعم مصقول، وليتحول الصوت مع انسدال شعر ذهبي فوق رأسه. شددت المرأة قبضتيها على رأس بائع المعجزات المخدوع.. وبدأت رحلة العودة إلى البلدة لتبدأ عملها، لكنها قالت لي، أنا الآن خادمتك.. لم تعد لأبيك سلطة على المعجزات في هذه البلدة.. ولذلك، سأمنحك الجيش الذي أمر بحبسه بعد الحرب الأخيرة. تفضل.

فتحَت الصندوق الكبير فانفجر شعب من النساء الورقيات، وما لبثت القصاصات أن بدأت تنهض على أقدامها، إلى أن اصطف الجيش في دائرة كبيرة أحاطت بي وبمسخي.

– سيكون خلفك في المدينة، فأنت بحاجة له في حربك الأخيرة.

# 12

كانت قائدة جيش الورق مجرد ورقة بلا أبعاد، مقصوصة بإتقان على هيئة آدمي. حلت ذات ظهيرة على المدينة بشكلها الغريب، وبدأت تتجول بخفة. قالت لي جدتي إن من نظروا في وجهها اكتشفوا أنه مليء بالتجاعيد كوجه أي آدمي شائخ من لحم ودم. كانت ألوانها باهتة، ربما لطول عمرها وما مر على جسدها الورقي من رياح وأمطار.. ترتدي جلباباً بخطوط زرقاء باهتة جداً وشعرها طويل وأبيض كأي شعر غزاه الشيب. كانت شخصاً مثيراً للاستغراب تماماً.. و لم يكن الأهالي ليحتملوا معجزة في ذلك الصيف البعيد الملتهب الذي لم تكن شمسه تختفي عن سماء البلدة إلا لساعات قليلة يومياً. في هذا الوقت الصعب جاءت المرأة

الورقية، لتضيف علامة استفهام جديدة إلى البلدة التي عرفت أسئلة كثيرة من قبل، و لم تحصل بالمقابل إلا على إجابات قليلة جداً.

ما هي إلا لحظات حتى صارت المرأة الغريبة حديث البلدة بأكملها. شوهد أطفال ذلك الزمن وهم يمسكون بها، "يطوونها" ويفردونها كلعبة مثيرة، بينما تصرخ هي بصوت آدمي حقيقي. نهرهم الآباء الذين اقتربوا بخوف حاولوا مُداراته، بينما تحسسوا جسدها الورقي برعب وهم يخلصونه. وفي المساء كانت كل بيوت البلدة تحاول فك لغز تلك القصاصة الآدمية التي تتجول في الشوارع، والتي لم يشك أحد أنها تنتمي لروح شريرة.

اجتمع الرجال، وقرروا تمزيق تلك الورقة التي جاءت لتبث الرعب في قلوبهم، ورغم أن بعض الحكماء رأوا أن يجلسوا معه ليعرفوا حكايته، إلا أن مطالبهم ووجهت بالرفض الحاسم من الأغلبية.

في زمن الحرب، كان رجال البلدة يخشون أي شيء، وبالذات الحرب التي تدور على أطراف البلدة والتي رفضوا الاشتراك فيها، بينما امتلأت ساحتها بالأطفال والنساء. ربما لذلك كان الرجال موقنين في قرارة أنفسهم أن هناك لعنة لابد أن تحل بهم جزاء لهم على تخليهم عن شجاعتهم، وشعروا بشكل غامض أن ذلك الرجل الهش له علاقة بتلك اللعنة. هكذا اجتمعوا في الصباح التالي، وراحوا يجوبون الشوارع حتى عثروا عليها جالسةً في ركن، تأكل بعض الأوراق. عندما رأتهم بشت في وجوههم وبدت عليها السعادة، وصاحت بلهفة: "إنني أنتظركم

بفارغ الصبر.. فقد شاركت في حربكم رغم أنني لست من سكان بلدتكم، لتعاطفي مع قضيتكم.. غير أن سحرة الأعداء حولوني لورقة.. وأنا أبحث عن شخص بينكم يفك سحري لأعود للدفاع عنكم!" شعر الرجال بخجل عميق، جعل الدماء تغلي في عروقهم أكثر، فاستجمعوا شجاعاتهم المنسية، وطوقوها، ثم بدأوا في تمزيق جسدها الهش إلى آلاف القصاصات، ونثروها في الهواء. بقيت القصاصات مخيمة بامتداد سماء البلدة بينما لم يتوقف صوت صراخ الرجل المجهول الذي انتشر في الهواء كأشلائه.

لم يعرف الأهالي، الذين صاروا يتجنبون النظر للسماء، أن قطع الورق راحت تكتسي باللحم.. يوماً بعد آخر عادت لأشلاء المرأة طبيعتها الآدمية.. ثم راحت تقترب من بعضها البعض بصبر، حتى جاء يوم صارت فيه المرأة الورقية مكتملة، ومعلقةً في السماء. في هذه اللحظة لم يستطع أحد أن يمنع نفسه من فضول النظر، ليتحول الرجال في لحظة إلى كائنات ورقية هشة، بينما تحول الأطفال المتطلعين لأعلى جميعهم إلى رجال مفتولين.

كانت جدتي تُنهي الحكاية بالعبارة التي لا يمكنني أن أنساها: على الفور نزلت المرأة مرفرفةً بذراعيها لتضع قدميها على الأرض، وبدأت تقطع الشوارع لتغادر البلدة عائدةً إلى المعركة، ومن خلفها الأطفال الأقوياء، تاركين خلفهم الرجال الذين من ورق.

ما إن نهضت المرأة على ساقيها، حتى مدت يديها بساقين أنثويتين لم أر أشد منهما بياضاً في حياتي.

قالت: أخيراً ستعود للإسكافية ساقاها اللتان بترتا في الحرب وحال سجني كل تلك السنوات دون أن أعيدهما إليها.. لكن يجب أن تقدمهما أنت بنفسك.. إنها كرامتك الأولى أيها الولي!

# 13

منذ فقدت ساقيها نذرت الإسكافية نفسها لخدمة الولي برتق نعال مريديه. لقد كانت بصحبة قائدة جيش الورق في الحرب التي خاضتها النساء. كانت أول مصابة في أول صف، وقد ظهر لها الولي قبل أن يندس رمح قاتل في رقبتها وحملها لتستريح على مقربة من ضريحه، مطمئناً إياها أنه سيعيد إليها ساقيها قريباً، لكن عليها أن تصبر.

رأيت بجانبها جبل النعال. وكانت النعال مختلفة الأشكال والألوان تتحرك بصخب كأنها تتشاجر، فأدرت وجهي بسرعة.

كانت منحنية على أشيائها عندما اقتربت منها مرتعداً، ومددت يدي بالساقين، فشهقت المرأة.

– الولي هنا.. لتنفيذ الوعد!

قالتها صارخة وهي تسحب العباءة الفضفاضة عن ساقيها المبتورتين، وتثبت الساقين، لتنهض أخيراً واقفةً على قدميها.

– خذ.

– ما هذا؟

– نعلا أمك. اذهب بهما للعرافة وستدلك من خلالهما على مكانها.. فهي قادرة على قراءة الخطوات... إنها تنتظرك يا بني منذ وُلدت.

قالت ذلك ثم نهضت، وفي هذه اللحظة تبخر جبل النعال تماماً، ثم أخذت تركض بساقيها حتى اختفت.

# 14

لم أر وجه العرافة أبداً، لأن شعرها المنسدل للأمام كان يحجبه، و لم تكن تكشف وجهها إلا لمن يطلب خدماتها، ولا يراه سواه. عندما توقفت أمامها، انسحب شعرها للخلف. رأيت وجهها لأول مرة، وارتعبت لأنني اكتشفت أنني رأيته كثيراً، في حلم طويل، يختلف عن بقية الأحلام، ذلك أنه لم يبدأ وينته في المنام نفسه، بل كنت في كل مرة أرى جزءاً منه، يعود المنام التالي ليكمله، حتى اكتملت حلقاته أمس، بالعبارة التي تصفر في أذني الآن، ألم أحذرك في طفولتك؟

إنه حلم يشبه الحياة، مثلما يمكن للحياة أن تشبه حلماً. يبدأ وأنا طفل، حيث ستبزغ عرافة لتخبرني بأن خطّي الجميل سيكون لعنتي الأبدية. كنت

أجلس وحدي على شاطيء بحر باهت الزرقة.. وكتبتُ على الرمل اسمي بالخط الكوفي والفارسي والديواني. كنت أنظر في الرمل حين فوجئت بقدمين معروقتين قاسيتين تدوسان اسمي، تمحوانه، بالتزامن مع موجة عنيفة جاءت لتبل الرمل وتغرق القدمين، كأن الكون قد تآمر على محو اسمي.

رفعتُ عينيّ، ورأيت المرأة الأكثر شيخوخة في العالم.. زرقاء، ترتدي ملابس مهلهلة. شعرها أبيض ومحلول ومُلقى للأمام حتى أنه أخفى وجهها تماماً. قالت لي، "أنت تريد أن تفنى.. أنت تريد أن تموت".

لم أُجبها. نَزَلَت من عليائها وجلست بجواري. نكَشَت الرمل كالمجذوبة فعاد اسمي للظهور من الخواء، مكتوباً كما كان بالخطوط الثلاثة. كأن قدماها لم تمحوانه، كأن البحر لم يحوله إلى عدم.

سألتني، من أنت؟ فقلت إنني لا أملك سوى ما تراه.

في الحلم، كما في الواقع، كنت بلا أُسرة. وُجِدتُ في خان مع خطاط عجوز، قال إن أهلي ائتمنوه عليَّ قبل رحيلهم لذلك فسأكبر كخادم له. لم يزد أبداً حرفاً على هذه العبارة الغامضة التي تصبح في الحلم تاريخي الوحيد. لا أعرف حتى الآن إن كان الرحيل في المنام يعني السفر أم الموت. لكني لم أكن خادماً عادياً، كنت خطاطاً، أفعل على وجه التقريب ما أصبحت أفعله في الواقع عندما كبرت.

في لحظات احتضاره يطلب مني الخطاط وهو ممدد على سرير موته أن أقترب منه. أمسك يدي بيده وقرب فمه من أذني حتى أن أنفاسه الثلجية

الأخيرة اخترقت أذنيَّ، قال، أنت تريد أن تعرف من أنت.

قلت، لا.

كنت أعرف أنه في سنوات شبابي التي بلغتها لن يكون مجدياً أن أعرف أي أب لي وأي أم. وكنت قد تأكدت أن السنوات التي يكوَّن فيها المرء مشاعره الأساسية تجاه من حوله قد وَلَّت. ومن ناحية أخرى، كان غموض قصة حياتي قد منحني الفرصة في حرية الكذب بخصوص نشأتي حين أتحدث للبنات الجميلات، دون أن أكون ملوماً، و لم أكن على استعداد لتحمل صدمة أن يكون أبواي فقيرين، أو أكتشف أنني ابن زنا. لم يلح الرجل في طلبه، كأنه كان ينتظر رفضي ليُخلِّص ضميره وحسب من عبئي. أوصاني على الخان من بعده، ثم أخرج مخطوطين.

قال: ستكون هذه مهمتك.. أن تعيد نسخ الحكاية المكتوبة في المخطوط الأول في المخطوط الثاني.. لقد أنجزت قدراً لكن يبدو أنني لن أتمكن من إتمام ما بدأته.. وعليك أن تحاكي طريقتي في الكتابة حسب تنوع الخطوط، وبنفس هذا الحبر، فليس من المسموح أن يشعر طالبه باختلاف اليدين.. وعليك أن تكون حذراً.. فلن ترى صاحبه أبداً، لأنه الموت نفسه.. وسيكتفي بإرسال فتاة جميلة بلا اسم نهاية هذا الشهر لتستلم الأصل والمخطوط المنسوخ". وأكمل الرجل بصوت مرتعش: "هذا المخطوط فيه حياتك وموتك.. فإن لم تنجزه في موعده المطلوب وبالدقة المطلوبة فسيكون مصيرك الموت. لقد حاولتُ دائماً أن أجنبك هذه المخاطر غير أنك صرت وريثي الوحيد.. وأراك قد كبرت وصرت مهيئاً لمواجهة الخطر". بعدها أغمض الرجل عينيه للأبد.

وجدت نفسي مطالباً بنسخ المخطوط السري. بدأت بتصفح المخطوط الأصلي، فسيطر علي رعب، لأنني فوجئت بأن صفحاته بيضاء، خالية من أي حرف، حيث لم أعرف ما الذي كان الرجل ينقله بالضبط من تلك الصفحات البيضاء وشغل حياته طيلة العامين الأخيرين. بدأت أقرأ ما كان الرجل ينسخه في مخطوطه، وصفحة بعد أخرى انتابني الذهول، بل الرعب.. كان الرجل يكتب قصة حياة طفل يتيم آل أمره إلى خطاط شهير وصار خطاطاً. في الحقيقة كان الرجل يخط قصة حياتي أنا بالذات.. ولكن كتابته انتهت عند اللحظة التي أحياها لحظة قراءة المخطوط المنسوخ. كتب أسراراً عميقة تخصني ظننت أن لا أحد غيري يعرفها، ولحظات خاصة يستحيل أن يطلع عليها سواي إلا الله. ما الذي كان الرجل سيكمله؟.. هل يحوي المخطوط الأصلي قصة حياتي منذ ولادتي حتى لحظة موتي؟! أصابتني الصاعقة في مقتل، فقد كان عليَّ أن أنسخ حياتي بالذات، التي كانت في المخطوط الأصلي عبارة عن صفحات خالية.

رحت عبثاً أقلب في الأوراق الفارغة. لم يقل لي الرجل كيف كان يعيد نسخها، ولا يوجد من أسأله، فلا أعرف لهذا المخطوط صاحباً، والموت هو مصيري الوحيد. فجأة.. برزت في ذهني فكرة غريبة، إذا كانت الحكاية التي في المخطوط هي حكايتي.. فلأتخيل بنفسي حياتي المقبلة.. فأنا في كل الأحوال ميت. شعرت بأنني مقبل على لعبة مثيرة، وكنت كلما تذكرت كلمات صاحب الخان الخاصة بحياتي المعلقة على هذه المهمة أرتعد وأشعر أن الموت قريب مني للغاية.

بدأت الكتابة، كنت في البداية أكتب عبارات بسيطة من تلك التي

يمكن أن تعبر عن حياة أي شخص في الدنيا، ولكن اللعبة ما لبثت أن جذبتني وانهمكت فيها بكل جوارحي، مرت الأيام و لم أكن قد كتبت سوى صفحات قليلة، فانكمشت من الرعب.. ولكن لحسن الحظ، مرت الليلة التي انتظرت فيها الإطاحة برقبتي دون أن يأتي أحد. بعدها زاد إحساسي بالأمان فرحت أكتب بانسيابية أكبر، وبخط جميل متقن لم أكتب مثله في حياتي. كنت أؤلف لنفسي حياة لم أعشها، سافرت بلاداً وعرفت أعداء وأصدقاء، ومع كل مرحلة في حياتي رحت أنوّع الخطوط حتى صارت تلك الخطوط تشبه تموجات حياتي التي رحت أؤلفها كأنني أكتب عن شخص آخر عاش ومات بالفعل قبل أن أجيء أنا للوجود. لا تريد الحكاية أن تنتهي، ولا أحد يجيء. مرت سنوات وسنوات وأنا أكبر في الواقع مثلما أكبر في الحكاية، إلى أن جاء يوم فوجئت فيه بيدي ترتعش كلما كتبت سطراً، وبدأت تعصاني بينما كنت في المراحل النهائية من كتابة حياتي. هنا عرفت أنني قد بلغت الشيخوخة وصرت على وشك الموت.

لا أعرف كم مضى من العمر. كل ما كنت أعرفه أنني أتممت أخيراً كتابة حياتي التي انتهت بتسليمي المخطوط لصاحبته دون أن أنتظر ثواباً أو عقاباً، لأنني، وكما كتبت في المخطوط، مت بعد تسليمه مباشرة في سريري. هكذا أنهيت حكايتي في المخطوط. لحظة انتهائي فوجئت بطرق على الباب، فتحته بلهفة، وجدت امرأة مغطاة الرأس تقف قبالتي فاتحةً يديها، عرفت من إشارتها أنها جاءت في طلب المخطوطين: الأصلي، وذلك الذي أكملتُ كتابته. قلت لنفسي: هذه إذن هي الفتاة التي حدثني عنها صاحب الخان قديماً، لكن.. ألا تزال فتاة؟ وما الذي فعله بها الزمن؟

ولأنني لم أعد أملك ما أخسره فقد كشفتُ وجهها بكل ما أملك من قسوة، ولكنها لم تفاجأ بما فعلت، لم تعبس و لم تنهرني. في هذه اللحظة رأيت أمامي الوجه المبتسم للعرافة التي زارتني في طفولتني، محتفظةً بشيخوختها وبلمعة العينين اللتين تقرآن حياة الناس القادمة.

اتسعت ضحكتها بمجرد أن صار وجهها مكشوفاً، حتى هيء لي أن المدينة بأسرها قد سمعتها. بدأت تقلب المخطوط بين يديها، وهي تطالع خطي الجميل. قالت، لقد كتبت حياتك ولكنك لم تعش حرفا مما كتبته". طلبت مني المخطوط الأصلي، فقدمته لها.. فتحته وأمرتني،" اقرأ ". قلت لها إن صفحاته بيضاء، فأتت بضحكة ماجنة أعنف من سابقتها، وفتحته أمامي بنفسها.. فوجئت بكل صفحاته مكتوبة. أخذت أقرأ صفحة بعد الأخرى وفوجئت بأنني كتبت بالضبط، وبنفس الصياغة، وتلونات الخط، قصتي التي في المخطوط الأصلي. قالت: "هذه الحياة الممتعة التي تمنيتها لنفسك هي بالضبط ما كان يمكن أن تحياه إن أنت فكرت في حياتك.. ولكنك لم تفكر لحظة في نبوءتي القديمة لك". غادرتني حاملة حياتي المكتوبة مرتين، وبينما أشعر بانسحاب أنفاسي التي بدأت تغادر الحياة، سمعت صوتها القادم من المجهول يردد: ألم أحذرك في طفولتك؟؟

تردد الصوت الآن من جديد، بالضبط كما تخبط بين جدران الحلم، ودون أن تطلب، مدت يديها وانتزعت النعلين من بين يدي. تأملتهما قليلاً، تشممتهما بتمعن، ووضعت عينيها فيهما، ثم قالت: خذ هذه المكحلة واركض إلى جبل الكحل.. الحق بأمك قبل أن تموت.

# 15

عندما لاحت أعمدة الإنارة على الصفين، عرفت أنني في الأنفاس الأخيرة، التي تفصلني عن الضريح. هنا تبدأ سطوته في التجلي، وتبدو كل الموجودات مختلفة.

رأيت جبل الكحل، قريباً مثلما لم أره من قبل حتى عندما كنت أتمرغ في ترابه الكثيف الأزرق أثناء طفولتي. أغمضت عيني وأنا أتلقى الرائحة التي تطوف بها الريح، كيف يمكن لي أن أصف رائحة زرقاء؟

ارتعدتُ عندما رأيت الطيف الواضح لامرأة تجلس القرفصاء عند قاعدته. كانت بنفس الملامح التي طيرتها الحكايات المتوارثة عنها. وتأكدت أنني في طريقي للغياب، فالموتى، كما قالت لي جدتي قديماً،

يعودون للتجسد فقط أمام الشخص الذي يناديه التراب.

رأيت عينها الواحدة في منتصف وجهها. عين واسعة جداً، مثل بئرٍ مكحولة، تسبح فيها ثلاث حدقات، واحدة سوداء، وواحدة حمراء، وواحدة خضراء، تبدو كثلاث سمكات زينة حائرة تسبح في بئر واسعة عَكِرة. الآن، عرفت لماذا كان البعض يسمونها المرأة ذات العين الواحدة، ويسميها آخرون المرأة ذات العيون الثلاثة.

قال أجداد الأجداد، نقلاً عن أجداد أجداد، إنها كانت امرأة غريبة، تسلي وقت فراغها بوضع حفنات قليلة كل صباح من المسحوق الناعم حول عينها من مكحلة سحرية، فيزيد اتساعها. قيل كثيراً إن عينها كانت جميلة، لكن لم يقل أحدٌ إنها مخيفة أيضاً. رأيت ماءها يتموج كموجات البحر الهادرة، تتدافع في مد وجزر لتصطدم بسور الكحل الصلب المحيط بها، وينجح بعض الماء في القفز من فوقه مغادراً عينها.. فتكون الدموع، التي بدأت تسيل داكنةً بامتداد ثوبها الفاتح الفضفاض.

دائماً كانت عينها تلك سر كبير غامض، وكذلك وجودها ذاته.. ورغم أنها لم تكن جميلة، فضلاً عن أن جسدها كان ضئيلاً ومتيبساً مثل فرع شجرة عتيقة، إلا أن نساء البلدة كن يحسدنها في سرهن، لجمال الكحل الذي يتوج عينها. لم يكن الكحل قد وُجِد بعد في العالم.. وكان المكان الوحيد الذي يمكن فيه العثور عليه هو جبل المرأة ذات العين الوحيدة، المرأة ذات العيون الثلاثة، والتي لم تبخل على امرأة في البلدة بنصحها أو عطاياها الكثيرة من أدوية وأطعمة سحرية وسوائل غريبة اللون والطعم. غير أنها رفضت بحسم كل الرجاءات بأن تعير أي امرأة ولو قدراً ضئيلاً

من الكحل الذي تضعه في عينيها.. وهو ما دفع النساء للتخمين أن قدراتها السحرية وحكمتها العميقة مصدرها جبل الكحل الذي لا ينفد أبداً.

لم يَكُنَّ يعرفن أن دموعها التي تسقط منها على الدوام تكون ممزوجة بالكحل، وحين تجف تتحول إلى قطع صلبة ماتلبث أن تصير كحلاً من جديد تعيد المرأة استخدامه. لم ترد على أسئلة أحد فيما يخص ذلك الشأن، لأنها –كأي امرأة حكيمة– كانت مقتنعة أن عذاب الإنسان يبدأ حين يسأل عما لايجب أن يعرفه.

لم يعرف ناس ذلك الزمان شيئاً عن تاريخها، ولا عن السبب في شكلها الغريب، ولكنهم طالما امتنوا لها لأنها استخدمته في حماية البلدة من غزوات اللصوص والغرباء، حيث كانت تملأ كفيها بحفنات من الكحل وتقذف بها في عيون الأعداء فتصيبهم بالعمى. تمر السنين.. لا المرأة تشيخ ولا جبل الكحل يتناقص.

بقدر إعجاب العاقرات بها، إلا أن غيرتهن كانت تتضاعف يوماً بعد يوم، إلى أن جاء يوم قررن فيه أن يذهبن جميعاً لجبل الكحل ويغترفن منه.. ولأنها حكيمة، فقد عرفت المرأة فور أن شاهدتهن بالأجولة الكبيرة أنهن جئن في أمرٍ غير عادي. قالت لهن قبل أن تنبس إحداهن ببنت شفة: "أنتن تردن هذا الكحل لعيونكن.. تعتقدن أن فيه سر خلودي وحكمتي، وتنسين أنني لا أملك سواه.. ليس لي زوج مثلكن ولا بيت ولا أبناء.. وبالمقابل فشكلي غريب وجسدي ضئيل.. أتستكثرون علي الشيء الوحيد الذي أملكه؟".

أطرقت النساء لثوان، ولكنهن أفقن سريعاً، مقررات ألا يستمعن للمرأة

وألا يفكرن في كلامها. بدأن يقتربن من جبل الكحل وتدافعت الأيادي لتأخذ كل امرأة ما تقوى عليه. هنا أكملت المرأة بابتسامة: "أستطيع أن أمنعكن، وأن أوقف أياديكن، ولكنني لن أفعل.. لأن الخسارة لن تكون من نصيبي". عندما أكملت عبارتها كانت النساء قد نهبن ما قدرن عليه من جبل الكحل، ثم التففن حولها وطوقنها ليحصلن على مكحلتها، استجارت المرأة بالولي وقذفت بالمكحلة بأقوى ما تستطيع، ويقال إنها وقعت على جلبابه، فظلت معه.

تفرقت النساء بأجولتهن التي عبأن فيها المسحوق الداكن. اختفت من بعدها المرأة للأبد، وصار وجودها ذكرى منذ ذلك اليوم.. لكن في اليوم التالي استيقظت كل امرأة وضعت الكحل في عينيها بعين واحدة بيضاء في منتصف وجهها، بلا حدقات، تسيل منها دموع حارقة على الدوام.. بينما تحوَّل مكان جبل الكحل إلى عين ماء واسعة، تسبح فيها ثلاث سمكات كبيرة. ولأن البحيرة كانت بلا سور يحتجز مياهها المندفعة.. فقد بدأ الماء يسيل في اندفاعات متلاحقة مجنونة، متجهاً نحو البيوت ليُغرقها.

فشلت كل المحاولات في بناء أسوار حول العين الهادرة، فقد كان اندفاع الماء دائماً أقوى من كل الحواجز، قادراً على إذابة الحجارة الكبيرة وكل المواد الأخرى التي جربها الأهالي ليتفادوا الغرق. مع شروق كل شمس جديدة كانت البلدة تفقد بيتاً أو أكثر، حتى جاء يوم قرر فيه الرجال أن يستخدموا ما تبقى من كحل في بيوتهم في تسوير عين الماء.. وكانت المفاجأة أن الماء كف من يومها عن مهاجمة البلدة، وبدأ الجبل ينبت من جديد، ويكبر يوماً بعد الآخر، لكن دون أن تظهر المرأة ثانيةً. صار الماء

يصطدم بالسور الجديد المتين دون أن يقوى على تفتيته أو إذابته.. فيما عدا موجات قليلة بين الحين والآخر، كانت تتمكن من القفز فوقه، وتتحرك في شوارع البلدة برفق، لتذكر الناس بدموع امرأة قديمة، وبجبلٍ داكن الزرقة تحولت حكايته إلى ذكرى بعيدة.

ناداني الصوت السحيق المتمدد من حنجرتها. وجدتني أقترب أكثر، أصابني دوار خفيف وأنا أرى العين تتسع كفوهة. أشهرت المكحلة، فمدت ذراعاً شبحية وانتزعتها، وعاد الصوت السحيق يردد: أخيراً يمكنني أن أضع الكحل في عيني من جديد وأعود للحياة.

ثم أمسكَت بيدي، شعرت بثقل القبضة رغم أن يدها كانت بلا ملمس، ومن فراغ سحري برز مدق لم أتخيل وجوده في الكتلة الصماء. قفزت بخفة وأصبحت أمامي فوق المسخ الذي تأوه رغم أن جسدها كان بلا وزن. طلبت مني أن أمسك بخصرها جيداً فأحكمت قبضتي على الهواء. قادتني في أنفاق متعرجة مضاءة بمصابيح شحيحة تعكس نوراً سماوياً، ثم توقفت أمام صف غرف متجاورة ولها أبواب متطابقة. أنزلتني من فوق المسخ أمام أحد الأبواب، وربطته بنفسها في عامودٍ من الكُحل، ثم فتحت الباب ودفعتني للداخل بقوة، حيث سمعت صوتها العميق لآخر مرة:

هل تريد أن تعرف من أمك؟ عليك أولاً أن تعيد لهذه المرأة شبابها.. ليس سواك.

وصفعت الباب خلفي بقسوة قبل حتى أن أستفسر عن شيء.

# 16

وجدتني في غرفة فقيرة، يحتلها سرير عال، فوقه كانت تجلس امرأة عارية بيضاء الشعر. في فوضى السحابات القطنية المتقاطعة لأجمة شعرها، كانت تلوح خافتةً الحياة النحيلة لشعرة سوداء متبقية، ذؤابة حياة أخيرة. خمنت على الفور أنني أمام "سبيل"، العاهرة التي ترقد في بناية الغرباء، لكن ما الذي أتى بسيل الحجرات هنا وكيف؟، هل ثمة صفقة ما بين سبيل وصاحبة جبل الكحل؟

سمعت كثيراً عن هذه العاهرة التي يشيخ شعرها أولاً، حيث أنها مع كل رجل يستأجر منها لحظة متعة، كانت شعرة سوداء من شعر رأسها الغزير الفاحم تتحول تلقائياً –فور أن ينتهي– إلى اللون الأبيض. ورغم أنها

اندهشت في المرة الأولى، وكانت لا تزال حينها شابة صغيرة، واعتبرتها مصادفة قدرية.. إلا أنها اكتشفت في المرات التالية أن ذلك يتكرر مع كل زائر جديد لجسدها، فبمجرد أن تعود لارتداء ملابسها تتحول شعرة في رأسها إلى أخرى شاهقة البياض، لها ملمس غامض متيبس، لتعلن لها أن شيئاً فيها يشيخ دون أن تدري.

في البداية لم تكن الخصلات البيضاء تظهر في غابة شعرها الكثيف الناعم، وكانت تبدو مثل ضيف خجول قادم من سنوات شيخوختها القادمة، يطرق بابها على استحياء دون أن يجرؤ على الدخول، ولكنها، ومع تزايدها الذي رافق ازدياد زبائنها بدأت تخدش ليل شعرها كأقمارٍ ذائبة. فكرت أنها لابد أن تصبغها. أرقتها تلك الفكرة، فقد كان ذلك يعني تكلفة جديدة.. ستضاف إلى كُلفة المساحيق باهظة الثمن التي كانت تداري بها ملامحها الأصلية لتصنع ذلك القناع السميك الذي يليق بمُغوية، والذي كان يحمي وجهها الحقيقي.

هكذا قررت سبيل أن ترفع من أجرها لتعوِّض تلك الخسارة الطارئة التي لم تكن تتوقعها. الغريب أن الشعيرات البيضاء رفضت الصبغة السوداء، ولم يتغير لونها رغم جبال الحناء. في تلك اللحظة قررت المرأة التي سيطر عليها الغضب أن تنزعها من جذورها بقسوة، رغم أنها كانت تعرف أن انتزاع شعرة بيضاء سيجعلها تعود أكثر قوة.. لكنها كانت تخشى في الوقت نفسه أن يؤثر ذلك على أجرها، فمهنتها علمتها أن المرأة التي تمنح جسدها للعابرين لا يجب أن يعرف أحد عمرها، ولا العدد الحقيقي للتجاعيد في جسدها.

بعد سنوات، وعندما صارت سبيل في منتصف العمر، اكتشفت أن انتزاع المزيد من الشعيرات سيحولها بعد قليل إلى امرأةٍ صلعاء تماماً خاصة وأن شعرها لم يعد في قوته السابقة. قررت أن تترك الشعيرات البيضاء تحيا وتتكاثر بحرية، وأقنعت نفسها بأن تلك علامة جاذبية تلائم امرأة في عمرها. بل إنها اكتشفت لعبة جديدة مسلية صارت تدمنها في لحظات وحدتها، والتي كانت تزداد حدة حين يشاركها رجلٌ سريرها، حيث تتشاغل بعد شعيرات رأسها البيضاء لتعرف حصيلة عشاقها العابرين.. واكتشفت بدهشة طفولية أنها قادرة على ربط كل شعرة بالرجل الذي منحها شيخوختها وباليوم الذي فقدت فيه لونها، واعتبرت المرأةُ ذلك ذاكرتها الجديدة، خاصةً وقد بدأ النسيان يزحف على ذاكرتها حتى تأكدت أنها بعد سنوات قليلة ستنسى كل شيء في حياتها، ولن تكون لديها فرصة، وهذا هو الأجمل، لتتذكر ذنوبها.

في سنوات تالية، وكانت سبيل قد وصلت للسن التي لا ينتظر الناس فيها سوى ظلمة المقبرة.. اكتشفت أنها لم تعد بحاجة لإحصاء شعيراتها البيضاء، بل لعد الشعيرات السوداء القليلة التي صارت متبقية في رأسها، لتعرف كم رجلاً سيضاجعها قبل أن تكف تماماً عن العمل. تضاءل أجرها كثيراً، كما صار زبائنها من الزوار الفقراء الذين يوفرون قوت يومهم بالكاد. وصارت شعيراتها السوداء المتبقية هي علامتها الأكيدة التي ستحدد لها يوم توقفها، فمع تحول آخر شعرةٍ سوداء في رأسها إلى اللون الأبيض ستترك كل شيء لتموت.

الآن صارت سبيل عجوزاً، بينما تخلع رداءً خفيفاً عن تجاعيدها،

وتفتح ذراعيها وساقيها في وقت واحد، داعيةً إياي للولوج. ورغم انطفاء المرأة الكامل، إلا أن الرغبة اجتاحتني، كأن هذه العاهرة تملك سراً يوقظ الرغبة في الرجال، حضرت نعمة وأمي معاً، في وجه واحد لأول مرة، وبالمشهد عينه لامرأة تُقتَل. عندما بدأت أدخل فيها وأخرج منها بقوة. كنت مرعوباً وأنا أعرف أنني سأكون الرجل الأخير الذي ستموت بين يديه، وفور نهوضي رأيت الشعرة السوداء الناحلة، زفير حياتها الأخير، وهي تتحول للبياض. كنت أنهض عندما انفصلت أجمة شعرها عن رأسها تاركةً رأساً صلعاء. انفرطت غابة الشعر على الأرض ملتئمةً حتى صارت ملاءةً شاهقة البياض، وباستسلام ألقت المرأة بعريها على الثوب الذي التف حول جسدها في لمحة.

قبل أن تغطي وجهها صرختُ فيها، أين أمي؟

لكنها قالت بآخر ما تبقى من صوت حياتها، "يمكنك الآن أن تذهب.. لقد فقد أبوك كل شيء"..

– أين أمي؟

صرختُ ثانيةً، لكن صوتي ارتد لي، ووجدتني، فوق مسخي، نتعثر في حديقة زلقة، باتجاه الضريح..

كانت قطعان المسوخ تصطف حاجبةً بابه.

.. وكان كل شيء قد بدأ يتهدم.

# في مملكة الظلال

رأى القطار يتجول داخل البيت.

أخيراً، هنا، بينما تتداعى الجدران في تطوحه ويهب الهواء ليُطيِّر كل شيء.

كم مرة تهشم وأصلحوه؟ لكن القطار هذه المرة كان يحتضر، وكانت خيوط الدماء المنسالة من أجساد البشر والدواب والطيور تشتبك. لا فرق بين دم هذه البقرة وهذه المرأة، لا فرق بين لبنهما، من ذهبوا في القطار، تكفي أشباحهم لتكوين مدينة موازية من الأرواح.

نظر للوجه الضائع دونه، بالعينين الجاحظتين تحت شباكه. لحية كثيفة، سوداء، وبلا أثر لشارب. جميع السائقين نسخة من هذا الرجل، ببزة زيتية يسدر من تحتها جلباب، قصير جداً يا رجل، وينزاح في الموت كاشفاً الغابة التي تتحرك من الساقين لتتوحش عند العانة. هل يكرهني سائقو القطار؟ أم ـببساطةـ يفقدون حيواتهم؟ هل هم

سلالة؟ عرف من السلالات المديدة التي رآها في مدن أحلامه ما يجعله لا يندهش، لكن خصياتهم كبيرة كالعجول التي تُذبح على عتبته، لا يتمتع الآدميون، على الأقل من يمكن التعرف عليهم في هذه المدينة، بخصيات بالونية كتلك، ولا أعضاء ذكرية متمددة وغليظة هكذا في سباتها.

"من هذا؟". سألها عن السائق بدلاً من أن يسألها عن اسمها، فقالت "رجل جديد يحاول قتلك". كيف قالتها بهذه البساطة؟ ولماذا لم تقلها من قبل؟ لأنه لم يسألها. أي برودة دم تنطوي عليها هذه الخادمة؟ "ولماذا لا أموت؟". "لأنك ميت، أو لأنه ليس من الممكن أن تموت". وشعر أن الكلمات تهبط من قصبة أنفها الحاد، بينما تنظف المرآة الكبيرة. "لماذا هؤلاء بالذات من يتناوبون قيادة القطار؟ ألا يوجد سائق قطار لا يرغب في قتلي؟". "لأنهم الأشخاص الوحيدون الراغبون في الموت. الناس في المدينة يخشون الموت. يخشونك. والقطار هو الشيء الوحيد الذي يسير ملتصقاً بأسوارك". "لكن الناس يموتون". "يعرفون أنهم قد يموتون في أي لحظة، لكنهم لا يملكون وسيلة أخرى للوصول إلى البلدات المجاورة".

لكن لماذا أيقظه هذا القطار هذه المرة؟ أو كيف؟ "ربما اقترب أكثر من كل مرة". سمعها بالكاد، كانت الآن في الباحة الخارجية، ترعى حديقة ناشئة، تلد زهوراً قاتمة تلائم الحداد.

المدينة تتغير. هكذا فكر الآن وهو يتأمل صفوف بيوت نبتت، بامتداد البصر، في أفق الغيطان الخضراء التي كانت تطوق المدينة، وحجبت الأصوات الأليفة لنقيق الضفادع المندثر.

لم يكن يصدق ذلك، وعندما تخبره خادمته أنها تمددت نحو عشرين مرة، كان يشيح بوجهه كأنه تأكد من جنونها. لقد صارت المدينة مدينته حتى أنه صدق أنها قبل ذلك لم تكن أكثر من فكرة في رأسه، تحولت بمرور السنين إلى كل هذه الشوارع والبيوت المتراصة ومن بعد ذلك الأنفاس.

وفكر فجأة أنه أصبح عجوزاً في موته بالطريقة التي يصبح بها الناس عجائز في حيواتهم، لدرجة أن ذكرياته نفسها شاخت وماتت في العمر الذي تموت فيه أشد الذكريات قدماً، الذكريات التي كالبشر، الذكريات التي تموت بالضرورة، حتى قبل موت أصحابها، تموت في حوادث عارضة، في الطفولة والشباب والكهولة، تُقتل أحياناً وتسيل منها دماء غير مرئية، بعضها يُدفن وبعضها يُترك في الطرق كحيوانات ضالة، فقط عندما تُكتب الذكريات تعيش، بالضبط كما يحدث للبشر، ذكرياتي لم تُكتب أولاً بأول، لقد تعرضت لخيانة ما، حيث كان ثمة مخطوط، إن لم أكن نسيت ذلك أيضاً، إن لم يكن محض هراء لم يقع، أليس كذلك؟ وتشير خادمته بالإيماء ثم تشيح بوجهها. لكنها عندما تُكتب مجدداً -إن حدث ذلك- ستُحرف، ولن تعود أبداً على علاقة

بذلك الذي حدث بالفعل. عليك ألا تقنط، الذكرى خيال شاحب لواقع لم يحدث.

وعاد ليقرر، لقد نسيت كل شيء تقريباً، فيما عدا ميتاتي.

ولأنه جرب الموت في أماكن كثيرة، لم يعد يخشاه، بل تمناه في وطنه، لأنه شعر بالخجل من أن يموت في كل البقاع ماعدا سريره.

لقد ظل الموت دائماً بعيداً عنك، وكنت ـعلى العكس من جميع البشرـ تنتظر مجيئه، ليس بخوف أو رهبة.. لكن بتصالح عذب، وبأمنية أكيدة أن يتذكرك قبل أن تتحول لكومة عظام حقيقيّة داخل جلبابك.

فجأة انفتحت ضلفتا الشباك تلقائياً، وأطل وجه.

أخرجته العينان من سرحته، كانتا تتحركان في وجه طفل.

راح يحدق فيه بفزع، العينان الطفلتان الواسعتان السوداوان، تجمدتا، وهما تحدقان فيه كأنما تواجهان جميع أشباح القادم.

واقترب. بصعوبة نهض وقطع الخطوات القليلة إلى الشباك الذي انفتح فجأة لتتسلل عبره شمس السماء القوية وتتدحرج داخل الغرفة كبقعة غامضة. شمس العمى التي أجبرته على الإشاحة بوجهه كأنه لم يكن يعرف أن ثمة كرة لهب صفراء تتدحرج في النهارات. تبخرت

الأسيجة، لا يعرف كيف، تبخرت ليستيقظ العالم.

مجرد طفل، بعينين كبيرتين، تبدوان كأنهما تتطلعان إلى عورته.

لم يتحدث، فقط أشار بإصبع تائه للداخل، وفي ركن ما، لمح الرجل الطائر الورقي، يتحرك ذاتياً كأن يداً وهمية تحلق به. وتحولت العينان إلى قطيع عيون، صافية، كما يجب أن تكون العيون. وقد تمكن طائر ورقي آخر، وثالث، من عبور فرجات شباكه لتموت السماء نفسها بجوار سريره.

بإشارة دعا الصبي للدخول، ولم يكن من الصعب أن يرفع الصبي ساقه ليقف على حافة النافذة الواطئة، ثم يقفز ليصير داخل الحجرة. لكن الباقين لم يكونوا بحاجة لأمر مشابه، تكدست العيون حول عينيه، ومن خلفهم، بدأت مدينة كاملة تزحف باتجاهه.

في هذه اللحظة نادى على الخادمة، وقد أكدت له العلامة الغامضة أنه سيموت أخيراً، ولكنها لم ترد. هُيئ له أنه سمع صرخةً أخيرة، صرخة وهن أتت على كبرياء الجسد الذي ظل يجاهد كي لا يقع. تحرك بصعوبة حتى رآها، من بين الستائر السوداء، نائمة على ظهرها بجسد أزرق.. وبجانبها رضيع يصرخ. ظل يتأملها كأن تلك هيئتها الوحيدة الأليفة لديه.. وبدأ يستوعب بهدوء أن الشيء الوحيد الذي يربطه بهذه المدينة غاب للأبد.

رغم كل شيء، كان قادراً على الإتيان بمعجزة أخيرة، مد يداً، عبرت الشبابيك والطريق وامتدت من نافذة بعيدة لتقبض الأصابع على مخطوط مُخبأ بعناية، أو هكذا ظن صاحبه. حمله إلى سريره حيث سينام لآخر مرة، عندما تنتهي الصفحة الأخيرة.

وفكر في أن مدينة حلمه القادم يجب أن تشهد ميتته النهائية، حيث سيرى، في هذه الليلة فقط، وللمرة الأولى منذ وُلد، مدينته.

# الوصول

.. حتى وصلتُ إلى العرش فإذا هو خال فألقيت نفسي إليه

قُبالة باب الضريح، ازدهر فردوس صغير وقاتم.

اعشوشبت الساحة الخالية المسورة. تَحوَّل جدبها الترابي لربيع خانق، هبَّت به يدا امرأة، لتنهض حديقةٌ يائسة، قادمةً من الركن البعيدً للعالم، ومزهرةً مثلما يمكن لقطعة من الجحيم أن تخمد.

عندما عبرتُها آخر مرة، متعثراً في وحلها الطارئ، كانت ماتزال بقعة طينية زلقة، داكنة كالليل، و لم يكن يبدو أنها يمكن أن تكتسب في يومٍ ما لوناً آخر، أو رائحةً.

في أيامنا الأخيرة معاً تطيرت نعمة فجأة بتحويل الفناء الترابي لشيء آخر، كانت تحلم بعبيرٍ خانق لابد أنها ظلت منحنيةً عليه بعد ذلك، عندما لم أعد أراها، عندما قررت لي أن أغادر دنياها فجأة، وعندما انصعتُ مديراً ظهري لأبي نفسه، لأدفن حواسي في الصفحات التي تتناقص بينما ألوث المخطوط بحكاية كاذبة، كانت هي حياتي الواحدة القابلة للتصديق.

الآن، تنتصب ورود كبيرة بدت شرسة، ربما اكتسبت شراستها من نعمة نفسها، التي ذبلت فجأة بالمقابل.

توقفتُ قليلاً أمام الجنة الطارئة التي أصبحت تسبق بابه. رأيتها تفقد صوابها. يقفز الأطفال من من فوق أسيجتها عندما تطيش كرة. تترنح القداسة أمام العينين الكبيرتين لطفل، عندما تصطدم كرة بالجدران، مرتدةً من جديد للأقدام لتعيد الكَرَّة، أو تحجب طائرة ورقية بالألوان الزاهية الحداد الأبدي للقبة الغائبة في سوادها، يلوث الطين الآيات الشاحبة، يصفع خشب النوافذ المغلقة، الباب الحصين لمناماته، حتى أنها تنفتح بصوتٍ عاصف. لكن الصفعة الجديدة كانت من نصيب وجهي، فاستيقظت.

في الخلف، كان بحر البشر يسد الأفق.. وأنا وحدي في السبات الذي يطل عليه بابه، محروساً بشعب المسوخ التي اصطفت، على قوائمها الخلفية، شابكةً قوائمها الأمامية في صفوف متتالية.

هل ستظهر الخادمة لمرة أخيرة؟ بالبطن المنتفخة، بذلك القادم من عتمة الهواء الثقيل؟

يقولون إن أشد الذكريات قدماً، تلك التي لا نستطيع أن ندركها، تشبه أبعد نقطة في المستقبل، الذي لم يأت بعد، وأنه بسبب ذلك، نبقى موتى في كل ما مضى مثلما نحن موتى فيما لم يجئ. إن هذا يعني أيضاً أن ما سيقع موجود بالفعل، ولا ينتظر سوى أن نعبر كي نستطيع رؤيته.. تماماً كذلك الذي وقع في الماضي. أم أن المقصود أن الماضي، كالمستقبل، مجهول لم يتحقق بعد؟.. لقد وطنت نفسي، دون أن أقصد ودون كثير تفكير، على أن أوهام الحياة أكثر بكثير من حقائقها.

غير أني الآن أسأل نفسي: لماذا لم يقل أحد أبداً إن الموت يجعل

الذكريات تسبح في ماء اللحظة الشفاف، القريب وغير العميق، حتى أنه يمكن لمسها باليد، بل والإمساك بها لو أراد المرء؟ ربما لم أفعل ذلك، ربما لم أجرؤ، كنت أعرف أن الذكريات لا يجب أن تخرج من الماء، كي لاتختنق وتموت، مرةً واحدة، وإلى الأبد.

لقد وصلت بألم ذكرى مبددة لقناعة مفادها أن القداسة لا تتحقق دون قدرٍ كافٍ من الخيال، لكن خطورة قناعاتي، تجسدت فجأة في شحوب المرئياتٍ، وبالمقابل، بدا كل ما كان من المستحيل تصوره، قابلاً للرؤية أمام عيني المجردتين. كنت أنقذ نفسي من الوهم، أو هكذا خمنت، فمر العام الأخير كله وأنا أسبح في تلك النقطة الغائمة، التي يستحيل القبض عليها، بين الواقع والخيال. لكن العبور الأخير للطريق، وحيث تجسد ما ظننته وهماً ليحملني برفق إلى الضفة الأخرى، هنا حيث ينتهي العالم نفسه ليبدأ فجأة من جديد عند المقابر العمومية، وحيث محوت، مرة بعد أخرى، كل أثر لحراس أبي، غير مدرك أنني في كل مرة كنت أقتل أماً محتملة.

ربما لأنني صدقت، أو لأنني لم أصدق على الإطلاق، فقد حمل لي اليقين، وبنفس قوة الشك، المذاق نفسه للخواء. وأنا الآن أعرف، أعرف الآن، بينما لم تعد ثمة فرصة لإضافة المشهد الذي حلمت به، في الورقة الوحيدة المتبقية، أنني تمنيت، فقط، في مخطوط حياتي القادم من منام ليتحول إلى ما كان يمكن تسميته ذات يوم واقعاً، أن أكتب قصة عن رجل عجوز بلا ذكريات، رجل تجاوز كل سنوات الآخرين إلى أن صار القادم نفسه ذكراه، وحيث يكفيه أن يستدير ناظراً خلفه كي يرى ما سيأتي قبل وقوعه الوشيك، ولكن حياته رغم ذلك مثل ورقة بيضاء، لم يعش قصة

حب، لم يخض حرباً، لم يمش في شارع مظلم و لم يخنه صديق، إنه حتى لم يدخن ذات يوم و لم يوقظه صراخ طفل، رجل يفكر في حياته ويحسد أقرانه العجائز أصحاب الذكريات المديدة، فيقرر أن يصاحب الأطفال لأنهم مثله، ولكنه يفاجأ بأنهم يطلبون منه حكايات من ماضيه مقابل أن يقبلوه صديقاً، فيضطر لتأليف حكايات لم يعشها، وتنتشر حكاياته بعد فترة، تصير مقنعة أكثر من ذكريات الناس الواقعية وأشد إثارة. يتمادى في لعبته أكثر، يقترب منه العجائز أنفسهم لسماع ماضيه المزيف، والسيدات، والرجال الأقوياء، ثم يأتي رجل من خارج البلدة، مؤرخ شاب، ليكتب تاريخها فلا يجد خيراً منه ليتلقف التاريخ من فمه. يسكبه المؤرخ في مخطوط كالقدر، لا سبيل لتفاديه. يصير هذا هو التاريخ الرسمي للبلدة، الذي هو جزء من التاريخ الرسمي للعالم، الذي حكاه بالتأكيد أشخاص بلا ذكريات. يحاول الناس بعد فترة إقناع المؤرخين والسلطات بأن كل ما حدث كان كذبة ولكنهم يديرون لهم ظهورهم، فقد كُتِب التاريخ وانتهى الأمر، تتضاعف الاعتراضات فيتعرض المشككون للإعدام ويزج بهم في زنازين معتمة، يخاف الباقون فيسلمون بأن هذا هو التاريخ، هذه هي ذاكرة العالم وكل ما عداها هراء، ثم تأتي أجيال جديدة لا تعرف شيئاً مما حدث، لا يعنيها حتى إن كان حدث أم لم يحدث، يكون الرجل قد مات وصار ولياً، مكان ميتته تحول إلى مزار مقدس يؤمه الجميع من كل أنحاء العالم، ولا يعرف أحد أنه لا يزال يحسد في ميتته أقرانه الذين ماتوا أيضاً، لأنهم كانوا يملكون ذكريات حقيقية في الوقت الذي صنع هو فيه بخياله تاريخاً مُختلقاً، ويتندر على الدنيا، الغرورة، التي منحته قداسة لمجرد أنه

أجاد الكذب على حفنة أطفال، بعد أن أدار الجميع ظهورهم له.

ما إن غادرني الحارس، وأغلقت الباب خلفه، حتى رأيت لحظة ولادتي. كنت أصرخ، وأمي ترفع ساقيها، وتلفظني بكل القسوة الممكنة.. وإلى جوارها يرقد جثمان ضخم، ميت، كما كان دائماً، حي، كما سيظل للأبد، يتنفس فيتلقف الناس زفيره ليعيدوا استنشاقه. من حولي أسيجة ضريح ووجوه تحاول عبثاً إدخال أياديها من الفرجات.. تتضرع لأنفاس الجثمان المقدس الذي يشهد مولد ابنه الوحيد. يغمر النمش وجهها، ويبدو كأنه يتحرك، يغير من مواضعه، كأنه سرب نمل بني يجوس في تجاعيدها غير المرئية. الرجل ينظر إلي، إليها، إلينا.. هل هو ناقم؟.. إنها تتفادى النظر في محيطه، كأن الهواء عورته.

أمي جميلة حتى أني أشتهيها بينما أغادر فرجها، أتردد في الخروج مثلما أتردد في العودة إلى داخلها مرة أخرى، وأظل على هذه الحال، أتقدم خطوة للأمام ثم أعود خطوتين للخلف. لقد كنت أضاجعها، ها أنا أرى الآن، بالطريقة الوحيدة الممكنة لجسد لم يغلق لحظة مكتملة في الدنيا بعد، أسمع صراخها، يتحول من صراخ ألم الولادة لصراخ اللذة، يخطو من العذاب للمتعة، حتى أنها بدأت تتحكم في جسدي، تخرج به وتدخله. كلانا يصرخ.. كلانا يستجير بالجانب المقتلع من جسده. تقف نعمة، تتحسس صحراء رحمها، مقررةً أنها لن تسقيها، لن تجلب خادمةً أخرى في السيل الهادر لسلالةٍ منذورة لموته.

وتولد حكاية.. هل تهمس بها امرأة في الخارج؟.. إنها تثقب أذني. أتلمس الآن الثقب الذي قالوا لي إن أمي صنعته لتوهم الحاسدين أني طفلة.

الآن يمكنني أن أكتشف ذلك الوجه الغامض الموزع على بقايا نساء قذف بهن الهواء المقدس ليتعذبن بالخلود في طريق ضيق يحيا بين موتين، الآن لم أعد حتى أطمع في معرفة أي شيء عن حقيقة حياتي، وقد صارت طفولتي نفسها محض كذبة.

ترجلت عن مسخي، حيث لن أراه بعد الآن، حيث سيجثو بعد قليل ليفقد أنفاسه عندما يخاصم الهواء أنفي. وأفسحت لي المسوخ طريقاً ضيقاً كي أصل.

فور إزاحتي للباب، رأيت المرأة المستلقية على الأرض، بساقين منفرجتين مثلما رأيتهما دائماً، واليدان الداكنتان للحارس الصامت تنتزعان الجسد الخارج من فرجها.

همس الصوت المحتضر، إنها فتاة، ستكون خادمتك غداً، لأنني أموت الآن.

في احتضارها كانت محتفظة ما تزال بنظرة التشفي التي ظلت تميز حياتها مثل نُدبة، بما يليق بامرأة تتشفى في نفسها.

حاولت أن أقترب، لكن يد الحارس الفولاذية أوقفتني، بينما صوت نعمة، لآخر مرة يتردد قبل أن تجحظ عيناها.

– لقد أنهيت الطريق.. صار طريقك الآن.. عليك أن تدخل، ستراه، سترى كل شيء.

دفعتني يد الحارس لأعبر الستائر، قذفت بي إلى حيث قررت في اللحظة الأخيرة أن أستدير للأبد، فخطوت وكأنني أطفو، شاعراً أنني

أترنح فوق رمادي. وفي لحظة، عندما مرق الضوء، ضوء العالم كله، مثل نصل خاطفٍ في الشمس، تجسد سيل العظام الذي يؤلف قامته، تحت القبة المفتوقة التي عبرت منها الطيور السوداء وأخذت تتخبط في العمى، لم يكن سوى هاتين العينين، تقتلان موته، نفس العينين اللتين طالما رأيتهما تطلان من وجهي في المرايا، وبين الكفين الأحدبين، كان المخطوط يترنح، بينما يلتهم صفحة بعد أخرى، وكلما أنهى صفحة، كانت تختفي. وتبقت ورقة واحدة، ورقة بيضاء أخيرة، تركها في الهواء فظلت معلقة، فكرت بينما أرقب سباحتها الثقيلة، أينا سيكتب فيها مشهد النهاية؟

أمرني الصوت، اقرأ.

حدقت عاجزاً، إلى أن انطفأ نور عيني.

همس الصوت، أنت الآن ميت. الآن أنت ترى.

رأيت أخيراً الحوائط وهي تتصدع، رأيت آلاف العيون تتطلع مثل نجمات تائهة، بوجوه فزعة، وما بدا ضربات آلاف المعاول راح يتزايد، لتتسع الهوات، وتتسع معها العيون المترنحة التي ترقب. ودفعتني من جديد يد من فولاذ فاستلقيت فوق عظامه التي انهارت تحت رقدتي إلى مسحوق هش، وبالمقابل كان اللحم ينسحب عن عظمي. كنت أفتح باباً لأبدأ حلماً يرقد خلفه، رأيت أنني في صحراء، وهناك بئر على مبعدة، عليَّ أن أصل إليها قبل أن أموت عطشاً، وفي هذه اللحظة، ولأول مرة منذ وُلِدت، رأيت وجه أمي.

## طـارق إمــام

- مواليد 12/ 8/ 1977م.

أصـدر 8 كتـب:

- طيور جديدة لم يفسدها الهواء – مجموعة قصصية – دار شرقيات – القاهرة – 1995م.
- شارع آخر لكائن – مجموعة قصصية – الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة – القاهرة – 1997م.
- ملك البحار الخمسة – مجموعة قصصية للفتيان – الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة – القاهرة – 2000م.
- شريعة القطة – رواية – دار ميريت – القاهرة، (طبعتان) – 2003، 2006.
- هدوء القتلة – رواية – دار ميريت – القاهرة (أربع طبعات)، 2007، 2008، 2009، 2010.
- الأرملة تكتب الخطابات سراً – رواية – دار العين، القاهرة – 2009.
- حكاية رجل عجوز كلما حلم بمدينة مات فيها – مجموعة قصصية – دار نهضة مصر، (ثلاث طبعات)، القاهرة، 2010م.

- الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس – رواية – دار العين للنشر، القاهرة (طبعتان)، 2012.

– ترجمت روايته "هدوء القتلة" للإيطالية، وتترجم حالياً للإسبانية والانجليزية، كما ترجم عدد من نصوصه للانجليزية والفرنسية.

**حصل على ست جوائز أدبية:**

– جائزة الدولة التشجيعية بمصر، عن رواية "هدوء القتلة"، 2009.

– جائزة ساويرس 2008 عن رواية "هدوء القتلة".

– جائزة ساويرس 2011 عن مجموعة "حكاية رجل عجوز كلما حلم بمدينة مات فيها".

– الجائزة المركزية لوزارة الثقافة المصرية لأفضل مجموعة قصصية مخطوطة، مرتين، عامي 2004 و2006.

– جائزة "سعاد الصباح" لأفضل مجموعة قصصية، 2005.

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm